الفصل الأول

عبد الرحمن الجبرتي : —

أسرته وحياته ومؤلفاته

obeikandl.com

أسرته

ينتسب الجبرتى وأسرته إلى « جبرت » وهى إقليم الزيلع الاسلامى فى شمال بلاد الحبشة . وقد كتب الجبرتى ، عند الكلام على وفاة والده ، فصلا عن وطنه وصفات أهله ، وما فيهم من الحذق والفطانة ، ولطافة الطباع ، وصفاء القلوب ، وما عند نسائهم من الصباحة ، والملاحة والفصاحة ، والسماحة ، وذكر فى نساء وطنه شعراً لطيفاً [1].

نزح الجد السابع للجبرتى ، واسمه عبد الرحمن ، من جبرت إلى جدة فى أوائل القرن العاشر ، ثم إلى مكة فجاور بها ، وحج مراراً ، ثم جاور بالمدينة سنتين ، ولقى من بالحرمين من كبار الشيوخ . ثم ارتحل إلى مصر واستقر بها وتزوج وولد له وكبر شأنه ، واتصل بالعلماء حتى اختير شيخاً لرواق الجبرت . وقد ظلت مشيخة الرواق ثلاثة قرون يتولاها أولاد الشيخ عبد الرحمن هذا حتى انتقلت عنهم بوفاة الجبرتى . وتزوج الجد الخامس للجبرتى ، الشيخ على ، زينب بنت الإمام القاضى عبدالرحمن الجوينى ، فلما ماتت تركت لولدى الشيخ «أما كن جارية» وقفتها عليهما .

ومات أبو حسن ، والد الجبرتى ، وعمره ست عشرة سنة ، وعمر ولده شهر واحد ، فكفلته جدته أم أبيه ، وتولت أمه تربيته ، وجعل وصياً عليه الشيخ محمد النشرتى الذى اختاره شيخاً للرواق كأسلافه . وكانت ولادة الشيخ حسن فى سنة ١١١٠هـ (١٦٩٨م) . وللشيخ محمد النشرتى ، وكان شيخاً للأزهر ، كثير من الفضل فى تربية حسن الجبرتى ، وكذلك لجدته لأبيه أكبر الفضل فى تهيئة سبيله إلى تلك المكانة الممتازة التى بلغ إليها . فقد كانت سيدة ذات ثراء ، لها بيت يشرف على النيل بربع الخرنوب . أقام معها فيه حسن فترة من الزمن يغدو منه ويروح إلى الجامع الأزهر ومعه خادم . ثم احترق هـــذا المنزل واحترقت معه « أشياء كثيرة من المتاع والصينى القديم » .

---

(١) ص ٣٨٩ — ٣٩٢ جزء ١ .

وانتقلت الجدة إلى مصر ، وكان يذهب معها إلى مكان لها بمصر العتيقة فى أيام النيل « بقصد النزهة » وهى التى أعانته على طلب العلم ، وأنفقت عليه بسخاء . وكانت لها أملاك وعقارات وقفت عليه منها وكالة بالصنادقية وما حولها من الحوانيت ، وأخرى بالغورية ومرجوش ومنزلا بجوار المدرسة الاقبغاوية . ووقفت أيضاً على وجوه البر .

وتزوجت جدته هذه بعد وفاة زوجها ، بالأمير على أغا الطورى ، وكان حاكماً على قلاع الطور والسويس والمويلح ، وكذلك تزوج الشيخ حسن ابنة الأمير على أغا هذا .

ولما مات على أغا نصب الشيخ حسن مكانه فى حكم هذه القلاع ، وكان هذا العمل غريباً عليه ، وهو من العلماء ، ولذلك لم يطل شغله له ، فقد أرسل خادماً له يسمى سليمانا الحصافى مشرفاً على قلعة مويلح فقتل هناك ، فتكدر الشيخ وترك هذا العمل وأقبل على الاشتغال بالعلم والتفرغ له . وماتت زوجه ، بنت على أغا ، فتزوج بنت رمضان جلبى بن يوسف المعروف بالخشاب ، « وهم بيت مجد وثروة ببولاق ، ولهم أملاك وعقارات وأوقاف » وكان رمضان جلبى هذا ، مع ثروته ، « إنساناً حسناً رقيق الحاشية » يقول الشعر ويقتنى الكتب .

ومات رمضان جلبى فى سنة ١١٣٩ ، وبقيت ابنته فى عصمة الشيخ حسن حتى ماتت سنة ١١٨٢ عن ستين سنة ، وكانت بنت رمضان جلبى هذه زوجاً بارة بوالد الجبرتى مطيعة له ، تشترى له الجوارى الحسان ، من مالها ، وتزينهن بالحلى والملابس ، وتقدمهن إليه ، وتعتقد أن فى ذلك مثوبة لها ، وكان يتزوج عليها كثيراً من الحرائر ، ويشترى الجوارى ، فلا تتأثر بذلك ، ولا تتحرك عندها الغيرة .

وقد روى الجبرتى عن زوج أبيه هـــذه قصة غريبة ، خلاصتها أن زوجها عند ما حج فى سنة ١١٥٦ إجتمع به فى مكة شيخ إسمه عمر الحلبى ، وأوصاه بشراء جارية بيضاء دون البلوغ ، وذكر له أوصافاً يرغبها ، فلما جاء الشيخ حسن من الحج ظل يبحث عن طلب صديقه حتى لقيه ، فلما اشترى الجارية وأدخلها عند زوجه وحان موعد رحيلها للشيخ عمر الحلبى ، قالت زوج الشيخ له إنى أحببت

هذه الجارية ولا أقدر على فراقها ، وليس لى أولاد ، وقد جعلتها مثل ابنتى ، وبكت الجارية أيضاً ، ثم دفعت الزوج ثمن الجارية ليشترى به أخرى للشيخ الحلبى ثم أعتقت الجارية وعقدت لزوجها عليها ، وجهزتها وفرشت لها مكاناً مستقلا وكانت لا تقدر على فراقها ساعة . وولدت الجارية لزوجها أولاداً فزاد حب سيدتها لها. وبقيت هذه الجارية زوجاً للشيخ حسن من سنة ١١٦٥ إلى أن مرضت فى سنة ١١٨٢ فمرضت سيدتها لمرضها ، وثقل عليهما المرض ، وقامت الجارية تنظر إلى مولاتها وهى فى غيبوبة ودعت الله أن تموت قبلها ، واستيقظت السيدة فى آخر الليل ووضعت يدها على جسد جاريتها وضرتها النائمة بجوارها وأخذت تناديها باسمها زليخا ، زليخا ، فقالوا لها إنها نائمة ، فقالت إن قلبى يحدثنى أنها ماتت . فلما تحقق لها ذلك جلست تبكى أحر بكاء . ثم استلقت على فراشها ومانت بعد جاريتها بيوم واحد . ويقول الجبرتى ، « وهذا من أعجب ما شاهدته ورأيته ووعيته ، وكان سنى إذ ذاك أربع عشرة سنة »

والد الجبرتى :

وكان الشيخ حسن الجبرتى عالماً من أكبر علماء عصره فى العلوم الشرعية والرياضة . تعلم الخط ، فأجاده ، والنقش على فصوص الخاتم ، فأحكمه ، وتعلم اللغة التركية — وهى لغة أهل السيادة والحكم — واللغة الفارسية فأجادهما ، « حتى أن كثيراً من الأعاجم والأتراك يعتقدون أن أصله من بلادهم ، لفصاحته فى التكلم بلسانهم ولغتهم » ثم اشتغل بالعلوم الرياضية فأتقن منها الفلك ، والهندسة ، والحساب ، والجغرافيا ، والمساحة ، والأوفاق ، وحل الرموز ، وفتح الكنوز ، و « انتهت إليه الرياسة فى الصناعة ، وأذعنت له أهل المعرفة بالطاعة »

ونزل القاهرة عالم متضلع فى الرياضة والحكمة والفلسفة ، اسمه الشيخ حسام الدين الهندى واستقر فى مسجد بمصر القديمة ، فقصده الشيخ وأعجب كلاهما بصاحبه وأحبه ، فلم يزل بالشيخ الهندى حتى نقله إلى داره وأفرد له مكاناً وأكرم نزله وأنفق عليه . وظل مقيماً عنده حتى رحل إلى بلاده .

وأخذ معارف الصوفية ، على الشيخ العارف عبد الخالق بن وفاء ، وكانت له فيها قدم ، وسلك طريق السادة النقشبندية ، وحفظ القرآن فى العاشرة .

وقد تلقى الشيخ حسن عن كبار الشيوخ فى عصره ، فى مصر وغيرها ، فمن شيوخه الشيخ على الصعيدى ، وعلى افندى الداغستانى ، والشيخ عبد ربه سليمان بن أحمد القشتالى الفاسى ، والشيخ عبد اللطيف الشامى ، والشيخ عمر الحلبى ، والشيخ حسين عبد الشكور المكى ، وحسن افندى قطة مسكين ، والشيخ مصطفى العيدروسى ، والشيخ محمد البنوفرى ، وغيرهم كثير . وكان أول شيوخه وهو فى الثالثة عشرة ، الشيخ حسن الشرنبلالى الصغير . وكذلك تلقى عن الشيخ كبار العلماء طبقة بعد طبقة . فمنهم الشيخ أحمد الراشدى ، والشيخ إبراهيم الحلبى والشيخ أحمد العروسى ، والشيخ محمد الصبان ، والشيخ محمد الأمير ، والشيخ محمد النفراوى . وتلقى عنه عدد كبير من أهل الروم والشام والمغرب والحجاز والداغستان . وتلقى عنه بعض أمراء المماليك أيضاً علوم الأدب والفقه ، فقد ذكر الجبرتى فى ترجمة عثمان بك ذو الفقار أنه « قرأ على الشيخ الوالد تحفة الملوك فى المذهب ، والمقامات الحريرية ، وكتبها له بخطه الحسن فى خمسين جزءاً » .

وكان والد الجبرتى يدرس فى الأزهر علوم الحكمة والهيئة والهندسة والتوقيت ، وهو آخر من درسها فيه . وكانت له ثلاثة بيوت يتنقل بينها . بيت فى الأبراية ، على شاطئ النيل ، وبيت فى بولاق ، وآخر بالصنادقية ، بجوار الأزهر فكان طلابه وتلامذته يقصدون إليه فى بيته لتلقى الدرس ، وكان يفضل أن يكون ذلك ببيت الصنادقية كيلا يشق عليهم ، وكان بعض تلامذته هؤلاء يقيم فى بيته طاعماً كاسياً ليتعلم ويراجع ما يشاء فى مكتبة الشيخ العامرة ، التى جعلها مباحة ميسرة لمن يشاء القراءة والمراجعة والاستفادة . وكان ألصق هؤلاء به الشيخ محمد النفراوى ، والشيخ محمد الصبان ، فقد كانا بمنزلة أولاده لا يفارقانه إلا وقت إلقاء دروسهما . وكان إذا أتاه طالب فرح به ، وأقبل عليه ، ورغبه فى طلب العلم ، وأكرمه ، وخصوصاً إذا كان غريباً ، وربما دعاه للاقامة عنده ، كما فعل مع الشيخ حسام الدين الهندى ، وكما فعل مع الشيخ محمد الغلانى الكشناوى الذى قدم إلى

مصر ثم إلى الحجاز ، فلما عاد منه أنزله عنده هو وزوجه وعبيده وجواريه . وبقى مقيما عنده حتى أتم غالب مؤلفاته ، ومات وهو ضيف عليه ؛ ومن التلاميذ من أقام فى بيت الشيخ الجبرتى عشرين عاماً « لا يتكلف إلى شيء من أمر معاشه ، حتى غسل ثيابه ، من غير ملل ولا ضجر » وصار من جملة عيال الشيخ .

وكان الشيخ كذلك كبير القدر ، جليل المكانة ، واسع الثراء ، طيب العيش. له فى كل بيت من بيوته الثلاثة ، المماليك ، والعبيد ، والجوارى البيض والسود، وهو ينتقل بين هذه البيوت ، ومعه تلامذته وأصحابه . ليباسط أخصاءه منهم ويمازحهم ، فلم يكن ، كبعض العلماء ، متعنتاً متزمتاً ، يروح عن جلسائه من هؤلاء الخاصة بالمناسبات والنوادر والأدبيات والشعر والموالياً والمجونيات والخطابات اللطيفة والنكات الظريفة ، ويذهب معهم إلى مواطن النزهة . يشتغلون بالعلم ومطارحة المسائل ، وأحياناً بالمباسطة والمفاكهة. وكان ، مع ذلك ، وقوراً محتشماً، مهيباً محبوباً لا يعادى ولا يخاصم ، ولا يشتغل بأمور الدنيا، متواضعاً قنوعاً، مقبلا على الكبير والصغير على سجيته ، ولا يدعى علماً ولا مشيخة ، ولا يرضى أن تقبل يده ، حتى من تلاميذه . له منزلة كبيرة عند الأمراء والولاة والأعيان ، يزورهم ويزورونه ، ويتشفع به إليهم الناس فتقضى حاجاتهم . وكان من أصدقائه من ولاة مصر ، على باشا الحكيم ، وراغب باشا ، وأحمد باشا كور — أى الأعور — ومن أمراء المماليك عثمان بك ذو الفقار ، حج معه ثلاث مرات من ماله الخاص ، ولم يقبل من عثمان بك ، وكان أميراً على الحج ، سوى الهدايا .

وأراد الأمير إبراهيم كتخذا أن يشترى له داراً واسعة أو يبنيها ، بدلاً من داره التى بالصنادقية ، فلم يقبل ، وكذلك عبد الرحمن كتخذا . ولم يستطع أحدهما أن يجبره على ذلك لمكانته وفضله . وراسله سلطان تركيا ، السلطان مصطفى ،[1] وأرسل إليه الهدايا والصلات والكتب. وكانت لهذا السلطان معرفة وعناية بعلوم الرياضة والنجوم . وكذلك أهديت للشيخ الهدايا من ولاة تونس ، والجزائر ، وأكابر الدولة فى تركيا . يذكر الجبرتى ، فى حوادث شهر شوال من سنة ١١٨٢

---

(١) تولى السلطنة سنة ١١٧١ ومات فى سنة ١١٨٧ [١٧٥٧ — ١٧٧٣ م] .

أن على بك الكبير أرسل هدية حافلة وخيولا مصرية ، إلى السلطان ورجال الدولة ، وكتب مع هديته رسائل « والتمس من الشيخ الوالد أن يكتب له أيضاً مكاتبات ، لما يعتقده من قبول كلامه وإشارته عندهم » وقد طلب على بك فى رسائله تلك عزل عثمان بك العظم من ولاية الشام . وكان على بك الكبير صديقاً للشيخ ، كبير الثقة فيه ، كثير المحبة له .

وفى ترجمة الأمير أحمد البارودى — وفيات سنة ١١٨٨ — أنه كان يزور الشيخ حسن الجبرتى فى بيته كل يوم جمعة ، وأنه التقى به مرة فى الطريق ، وهو راكب فى أبهته ، والشيخ راكب على بغلته ، فعند ما رآه نزل عن جواده ، وقبل يده ، فأكبر الشيخ ذلك واستحى منه واستعظمه . والتمس من الأمير أن يقيد به بعض الطلبة ليقرئه شيئاً من الفقه والدين ، فقيّد به الشيخ عبد الرحمن العريشى ، الذى تولى مشيخة الأزهر فيما بعد .

وكان الشيخ حسن محباً للكتب جماعاً لها ، يبذل فى اقتنائها المال الكثير ، فكانت داره عامرة بالكتب النادرة وبعضها باللغة التركية والفارسية ، مثل الشاهنامه وتواريخ العجم ،[1] وفيها آلات فلكية وهندسية . وأفرد فى بيته مكاناً خاصاً جمع فيه الكتب المتداولة بين علماء عصره فى الفقه ، والحديث والتفسير والتوحيد والمنطق واللغة وغيرها ، فكان العلماء والطلاب يجيئون هذا المكان ويأخذون ما يشاؤون من الكتب بغير استئذان ، وكان منهم من يأخذ الكتاب ولا يرده ، ومنهم من يأخذ كتاباً ويرد غيره ، والشيخ سمح لا يمنع . وكانت عنده أيضاً « التشاويه والتصاوير البديعة الصنعة ، الغريبة الشكل . وكذلك الآلات الفلكية من الكرات النحاس ، وآلات الإرتفاع والميّالات والأرصاد والأسطرلابات والأرباع والعدد الهندسية ، وأدوات غالب الصناع ، مثل النجارين والخراطين والحدادين والسمكرية والمجلدين والنقاشين والصاغة والرسامين » ، وكان يجمع الحاذقين من أهل هذه الصناعات عنده ليتعلم منهم ، ويعلمهم ، حتى تعلم خدمه بعض هذه

(١) كان فى خزانة كتبه كتاب زيج الراصد السمرقندى باللغة الفارسية ، وكان يقول إنه ليس فى الدنيا من هذا الزيج سوى ثلاث نسخ ، ونسخته مكتوب عليها بخط رستم شاه أنها شريت لدار سلطنة هراة بأثنى عشر ألف دينار .

الصناعات فصاروا « يقطعون البلاط بالمناشير ويمسحونه بالماسح الحديد والمبارد ، ويهندسون اعتداله بالمساطر والقياسات بالبيا كير ويرسمونه أيضاً » .

ولما كثر عنده الراغبون فى تعلم هذه الصناعات جعل لهم معلمين يعلمونهم ، كان الطالب من أبناء العرب يتقيد بالشيخ محمد النفراوى ، وإن كان من الأعاجم تقيد بمحمود أفندى النيش . وانصرف هو بعد ذلك إلى دراسة الفقه والفتوى ، وكان إماما فى مذهب أبى حنيفة ، وقد رسم بنفسه كثيراً من المنحرفات والزاول على الرخام والبلاط ونصبها فى مساجد كثيرة كالأزهر ، والامام الشافعى ، وقوصون والأشرفية ، والسادات .

وتجاوزت شهرة الجبرتى حدود مصر والبلاد الإسلامية ، فحضر إليه طلاب من الأفرنج — فى سنة ١١٥٩ — ليتعلموا عنده علم الهندسة ، وأهدوا إليه من صنائعهم وآلاتهم أشياء نفيسة ثم « ذهبوا إلى بلادهم ، ونشروا بها ذلك العلم ، وأخرجوه من القوة إلى الفعل » وضعوا به طواحين الهواء ، وآلات جر الأثقال واستنباط المياه .

واشتغل الشيخ حسن الجبرتى أيضاً بعلوم الطب ، وكان يضع خبرته فى ذلك لخير الناس ونفعهم ، كان الشيخ إبراهيم الصيحانى الغزى ، مفتى الحنفية فى غزة ، من تلاميذه فى الأزهر . فلما عاد إلى بلده كان يرسل إلى شيخه فى كل سنة « جانبا من اللوز المر فى غلق ، مقدار عشرين رطلا ، فنخرج منه دهنه ونرفعه فى الزجاج لنفع الناس فى الدهن ومعالجات بعض الأمراض والجروحات » .

وفى سنة ١١٧٣ كان فساد الموازين قد أصبح مشكلة كبرى للناس وللحكام فى مصر ، فاشتغل الشيخ بإصلاحها وأحضر الصناع لذلك من الحدادين والسباكين وحرر المثاقيل الصنج ورسمها على أصولها وهندستها .

وأنفق فى ذلك أموالا من عنده ، ثم أحضر كبار القبانية والوزّانين وعرفهم طريق الصواب ، وأصلحوا آلتهم ، واستمر العمل فى ذلك أشهراً ، ثم ألف لهم فى ذلك كتابا سماه « الدر الثمين فى علم الموازين » .

وكان الشيخ أيضاً يقول الشعر ، وقد أورد الجبرتى من شعر أبيه شيئا قليلا

بعضه فى النحو ، وبعضه فى ذكر من يدخل الجنة من الحيوان ، كناقة صالح ، وعجل إبراهيم ، والحوت والبقرة وغيرها ، ومنه شعر فى نظم ساعات النهار ، وبعض نصائح طبية . وكله شعر تافه ثقيل ، كشعر الفقهاء .

أما مؤلفاته ، التى دونها ابنه عبد الرحمن ، فهى تدل على ثقافته المتنوعة المختلفة ، فمن ذلك كتبه : نزهة العين فى زكاة المعدنين ، والأقوال المعربة عن أحوال الأشربة ، وكشف اللثام عن وجوه مخدرات النصف الأول من ذوى الأرحام ، وبوغ الآمال فى كيفية الاستقبال ، ومؤلفات أخرى فى العروض ، وشرح الدر المختار ، ومناسك الحج ، وتقييدات على المصام والحفيد والمطول والمواقف والهداية ، وحاشية على شرح قاضى زاده على الجغمينى ، وبراهين هندسية شتى ، وغير ذلك .

ومع هذه المكانة المرموقة ، التى بلغها حسن الجبرتى ، وما كان له من جاه ومجد وعلم ، فقد كان متواضعاً ، « يجلس فى آخر المجلس على أى هيئة كان ، بعمامة أو بدونها ويلبس أى لباس ، ويتحزم ولو بكنار الجوخ ، أو خرقة أو شال كشميرى ، ولا ينام على فراش ممهد ، بل كيفما اتفق ، وكان أكثر نومه وهو جالس » ، وكان شجاعاً لا يحب الرياء ، يصوم رجب وشعبان ورمضان ولا يقول إنه صائم . أراد الأمير يوسف الكبير أن يدخل مسجداً فى عمارة بيته وسأل الشيخ أن يفتيه بهدمه وبنائه فى مكان آخر ، فمنعه من ذلك فامتنع . وكانت له فى العلم والفتيا مكانة كبيرة . فانكب عليه الناس يستفتونه ، وتقرر فى أذهانهم تحريه الحق . حتى أن القضاة لا يثقون إلا بفتواه . وكان كريما سمح النفس ، يكرم الضيف ، ويتلقف الوافد ، ويراعى الأقارب والأجانب بشوشا ، يخدم جلاسه بنفسه .

قدم مصر الشيخ إبراهيم بن أبى البركات العباسى المشهور بالسويدى ، فى سنة ١١٧٥ ، فأنزله الشيخ فى بيته ، وصار ينتقل معه ومع تلاميذه إلى بولاق وغيرها من المتنزهات ، ثم حل بالسويدى مرض فأنزله ببيته فى بولاق على النيل وقيد لخدمته جماعة من عبيده ، فكان كلما اختلى بنفسه ، وهبت عليه نسمات النيل المنعشة ، أخذ القلم ونقش على جدران البيت وأخشابه قصائد المدح فى مضيفة العالم الكريم ، وفى وصف النيل ورياضه وزهوره فكتب من ذلك عشرين قصيدة ، ظلت منقوشة

فى أماكنها زمناً ثم انفرست .

وكان الشيخ محمد النفراوى قد بلغ النهاية فى العلوم الشرعية ، وأراد أن يتعلم الحكمة والرياضة ، فأحضره والده للشيخ حسن فى سنة ١١٧١ فرحب به واغتبط بما رأى من حسن استعداده ، وأعطاه مفتاح خزانة منزله ليضع فيها كتبه ومتاعه واشترى له حماراً ، ورتب له مصروفاً وكسوة . وأرسل الشيخ أحمد الدمنهورى خمسة أسئلة إلى على بك الكبير وقال له : سل فيها العلماء الذين يترددون عليك إن كانوا يزعمون أنهم علماء ؛ فأعطاها على بك للشيخ حسن . فكان لبقاً حكيماً مترفعاً حيث قال إنها وإن كانت من عويصات المسائل يجيب عنها ولدنا الشيخ محمد النفراوى . فمكن ، مع لباقته وحكمته وترفعه ، لتلميذه أن ينال شهرة ومكانة بين العلماء ، وعند على بك .

وكانت تقال فى الشيخ المدائح ، فكان متواضعاً منه ، يقبلها ويجيز قائلها ، ثم يمزقها . وكان ، مع ثرائه العريض ، وما بلغ من مكانة فى العلم ، وفى الحياة ، يشتغل بالتجارة .

وهكذا عاش والد الجبرتى إلى أن جاءت سنة ١١٧٩ فتوفى ابنه ، أبو الفلاح على ، أخو الجبرتى لأبيه ، وكانت عمره إثنى عشرة سنة ، وكان الشيخ قد أنجب من زوجاته وسراريه أكثر من أربعين مولوداً لم يعيش منهم سوى على هذا ، وعبد الرحمن ؛ فلما مات ابنه على ثقل عليه الحزن ، وتوالت عليه الآلام والأمراض ، وترك بيوته على النيل ولزم بيت الصنادقية ، وقلت حركته ، ولكنه لم ينقطع عن الأملاء والأفادة والتحقيق ، ولم يزل كذلك حتى تعلل بالهيضة الصفراوية إثنى عشر يوما ، ثم مات عن سبع وسبعين سنة فى يوم الثلاثاء غرة صفر من سنة ١١٨٨ — أبريل سنة ١٧٧٤ — وصلى عليه فى الأزهر بمشهد حافل جداً ، ودفن عند أسلافه بتربة الصحراء ، بجوار الشمس البابلى ، والخطيب الشربينى ، وقيلت فيه المراثى الكثيرة من كبار شعراء العصر .

ذلك هو ، أبو التدانى ، نور الدين حسن الجبرتى ، أبو عبد الرحمن .

عبد الرحمن الجبرتي :

أما ابنه ، أبو العزم عبد الرحمن ، صاحب عجائب الآثار ، فقد ولدته إحدى السراري في سنة ١١٦٧ هـ « ١٧٥٤ م » بالقاهرة ، ولم أعرف أن التاريخ ذكر لنا عن هذه الجارية شيئاً : هل كانت بيضاء أم سوداء ، ومن أى جنس أو بلد هى ، ولكنى أعتقد أنها كانت بيضاء .

أرسله أبوه ، وهو طفل إلى مدرسة السنانية ، القريبة من منزلهم بالصنادقية ، ليحفظ فيها القرآن ، فإذا عاد تلقى على أبيه وعلى بعض الشيوخ الذين يترددون على بيته ، بعض العلوم . وأتم حفظ القرآن الكريم فى سن الحادية عشرة ، ثم رغب الشيخ عبد الرحمن العريشى إلى فى أبيه أن يلحقه برواق الشوام ، ليلقنه مذهب الحنفية ، فسلمه إليه .

وبادر أبوه فزوجه ، وهو فى الرابعة عشر ، فى سنة ١١٨٢ ، ولم يذكر لنا التاريخ أيضاً عن هذه الزوج شيئاً ، وقد سجل شاعر العصر الشيخ عبد الله الأدكاوى هذه الزيجة بقصيدة قدمها إلى والد الجبرتى قال فى ختامها وبيت تاريخها : —

هذا هناء محبك الـ   داعى لكم بسمو قدرك
والحال قـــد أرّخته   شمس البها زفت لبدرك

وظل عبد الرحمن يتردد على حلقات الشيوخ فى الأزهر بعد ذلك ، ثم يمضى إلى بيته فيتلقاه أبوه متحدثاً إليه فى التاريخ وأحداث عصره ، فقد كان أبوه محبا للقصص ، والأغانى ، ودارساً معه ما يشتغل به الشيخ من علوم الفلك والرياضة والحكمة . وكذلك كان زوار الشيخ من كبار العلماء والشعراء والأمراء يلقاهم الجبرتى الصغير فيتحدثون إليه ويحدثهم ، ويفيد من علمهم وأدبهم وحسن توجيههم . وتتمكن العلائق بينه وبين الأمراء منهم خاصة .

وبقى حاله كذلك حتى مات أبوه ، وهو فى سن الثانية والعشرين ، وترك له ثروة ضخمة ، مادية وأدبية . ترك له من الثروة المادية بيوته فى بولاق والصنادقية ومصر القديمة ، وأرضا له بالقرب من كفر الزيات فى بلدة « إبيار » وأوقافا كبيرة على مسجد بين رشيد والأسكندرية ، على بحيرة إدكو ، تنظر عليها بعد أبيه ، كان

أوقفها جده علىّ فى أيام الملك الأشرف قايتباى ، وكان الملك الأشرف يعتقد فى هذا الجد اعتقاداً كبيراً . وكذلك كان الجبرتى شيخاً على مقبرة الطحاوى بالقرافة .

وكان هذا الوقف « عدة أماكن وقيعان ، وأنوال حياكة ، وبساتين ، ونخيل كثيرة » . وكان بيته على النيل يرتفع عن مستوى الماء عشرين درجة ، وذكر الجبرتى أنه أجرى عمارة فى بيت الصنادقية ، بدأها فى سنة ١١٩١ وأتمها فى السنة الثانية . وأنشأ الشيخ مصطفى الصاوى فى ذلك قصيدة نقشها الجبرتى فى مجلسه من البيت .

وقد جعل الجبرتى من بيته ذاك ، بهذه العمارة ، قصراً أنيقاً ، فيه حديقة صغيرة ، وبئر ، ومساكن للخدم والعبيد ، وأخرى للضيوف . وحجرة متسعة للمذاكرة مع الطلبة ، والتدريس ، وأقام فيه أعمدة من الرخام المختلف الألوان ، نقش جدرانه بالخشب المحفور ، والقيشانى الملون ، ونثر فى حجراته الآنية الفاخرة ، والأرائك الثمينة ، وفرش أرضها بالسجاجيد الغالية والطراريح الحريرية ، وابتّس أبوابه بالصدف والنحاس البراق ، وعلق الثريات من البلور ، وجعل فيه حجرة رحبة للكتب ، وأنفق فى هذه العمارة مالا كثيراً .

وسكن الجبرتى ، فترة من الزمن ، فى بيت يطل على بركة الرطلى . وكانت ، كما يقول ، « يسكنها أهل الرفاهية من أهل البلد ، لطيب هوائها وانكشاف الريح البحرى ، وليس فى برها الآخر سوى الأشجار والمزارع ، وتعبرها المراكب والسفائن » .

أما الثروة الأدبية التى خلفها له أبوه ، فهى تلك المكانة المرموقة ، والمحبة التى ربطت بينه وبين علماء عصره وأهل الحكم والثراء فيه ، وذلك المجد الأدبى والعلمى الذى صار إليه اسم الجبرتى ، واسم آبائه وأجداده من قبل ، وتلك الكنوز العظيمة النادرة من الكتب ، التى أفنى أبوه فى جمعها مالا عظيما وجهداً عظيما .

بقى الجبرتى ، بعد وفاة أبيه ، متصلا بالأزهر وشيوخه ، يحضر دروسهم فيه ويزورونه فى بيته كما كانوا يزورون أباه من قبل ، باحثين مدارسين ، فلما كبر الجبرتى وأجازته شيوخه أخـذ يلقى دروساً فى الأزهر وفى بعض المساجد ، وفى بيته .

وقدم مصر ، فى السنة التى ولد فيها الجبرتى ، عالم كبير من اليمن ، هو السيد مرتضى الزبيدى ، صاحب تاج العروس ، فلما تعرف إليه الجبرتى فيما بعد ، أعجب به ولازمه وصادقه ، وأصبح من المواظبين على دروسه مع طائفة كبيرة من إخوانه ، الذين تبوؤا ، فيما بعد ، مكان الصدارة العلمية والأدبية فى مصر ، فدرس لهم الزبيدى فصيح تعلب ، وفقه اللغة للثعالبى ، وأدب الكاتب لابن قتيبة ، وسمعوا كثيراً من شرحه للقاموس ، كما سمعوا فى الأمالى والشمائل . ودرس الجبرتى علوم الفقه ، ثم مال ميل أبيه لدراسة الفلك والحساب والهندسة . ومال إلى التصوف ، وكان من مريدى الشيخ محمود الكردى يرافقه فى ذلك الشيخ عبد الله الشرقاوى . ودرس الطب وألف فيه .

وفى أواخر سنة ١١٩٥ تزوج الجبرتى مرة أخرى ، ولم يقل لنا أين ذهبت زوجه الأولى ، تزوج ربيبة صديقه على عبد الله درويش الرومى ، برغبة منه . وكان الرومى هذا رجلا يعمل عند المماليك ، « حسن السمت ، نظيف الثياب ، وجيه الطلعة ، مهيب الشكل ، سليم الطوية ، مقبول الروحانية ، نيف على التسعين ولم يسقط له سن ، ويكسر اللوزه بأسنانه » وكان مثقفاً غزير الأطلاع ، وربيبة على الرومى هذه هى التى أنجبت للجبرتى ولده خليلا ، ومات صهره هذا فى سنة ١١٩٩ هـ وظل الجبرتى يفيد ويستفيد ، ويباشر شئونه الخاصة ، ويراجع فى مكتبة أبيه الحافلة ، حتى جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر ، فى صفر من سنة ١٢١٣ هـ ١٧٩٨م فترك القاهرة إلى مزرعته فى « إبيار » ثم عاد إليها بعد قليل ، عندما أرسل العلماء ، بأشارة نابليون ، إليه وإلى غيره ممن هاجروا ، ليعودوا . ولما ألف الجنرال منو ، قائد الجيش الفرنسى بعد نابليون ، الديوان الثالث . اختير الجبرتى عضواً فيه ، وكان أعضاؤه تسعة . ولما دخل العثمانيون القاهرة بقيادة يوسف باشا ، لأخلائها من

الفرنسيين ، وأخذ هؤلاء بعض كبار الشيوخ من أعضاء الديوان رهائن ، بقى الجبرتى . والبكرى ، والسرسى والأمير، أحراراً ، وأمرهم الفرنسيون بأن « يكون نظرهم على البلد » أى يكون لهم الإشراف على شئون القاهرة .

وبعد انتهاء الحملة الفرنسية على مصر ، ودخولها مرة أخرى فى حكم الدولة العثمانية . دون حوادث هذه الفترة فى كتاب سماه « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس »، وكان له من مكانته إذ ذاك ، وعضويته للديوان، ومن علاقاته الخاصة ، وصداقته الوطيدة للشيخ إسماعيل الخشاب ، كاتم أسرار الديوان ، ما يمكنه من معرفة دقائق الأسرار . وقد أهدى كتابه مظهر التقديس هذا إلى الوزير يوسف باشا ، فلما عاد إلى اسطنبول عرضه على السلطان سليم الثالث ، فأمر كبير اطبائه مصطفى بهجت بنقله إلى اللغة التركية ، ففرغ من ذلك سنة ١٢٢٢ — ١٨٠٧ م وترجمه بعد ذلك إلى هذه اللغة أحمد أفندى عاصم سنة ١٨١٠ .

ويبدو مما كتبه الجبرتى فى الفصول الأخيرة من كتابه ، أنه كان يشكو الأسقام والمرض . يشير إلى ذلك فى آخر حديثه عن سنة ١٢٢٥ حيث يذكر « تشويش البال ، وهم العيال ، وتكدر الحال ، وكثرة الأشتغال ، وضعف البدن ، وضيق العطن » .

ويذكر كثير من المؤرخين ، أن الجبرتى اشتغل فى أواخر حياته مؤقتاً للصلاة وهلالى رمضان وشوال فى بلاط محمد على ، ولم يذكر هو شيئاً من ذلك فى تاريخه ، وبعض المؤرخين يقول إن الذى تولى هذا العمل هو ابنه خليل .

وقد أصيب الجبرتى فى آخر حياته بمحنة قاسية، ففى صباح الثامن والعشرين من رمضان سنة ١٢٣٧ — ١٩ يونيو ١٨٢٢ — كان خليل عائد من قصر محمد على فى شبرا ، بعد صلاة الفجر ، فخرج عليه جماعة أخذوا يضربونه حتى قضوا عليه ، وخنقوه . ثم ربطوه برجل حماره . فلما أصبح الصبح عرفه الناس ، ووجدوا على صدره دفاتر مكتوبة ، وأسطرلابا لرصد النجوم والكواكب .

وتناقل الناس ، والمؤرخون من بعدهم ، شائعات عن اشتراك سليمان أغا

السلحدار ، ومحمد بك الدفتردار ، صهر محمد على ، فى هذه المؤامرة ، وعن استئذان الدفتردار لمحمد على فى تدبيرها . وهى شائعات يذكرها المؤرخون ليفندوها . وقد وردت فى دائرة المعارف الإسلامية على أنها صحيحة ، وأن الذى قتل هو الجبرتى نفسه[١] .

وقد أصيب الجبرتى بموت ابنه على هذه الصورة ، وهو بين المرض والكبر والضيق ، بنازلة شديدة حطمت حياته ، فترك الكتابة والتأليف ، وانقطع عن القراءة ؛ وألح عليه الحزن ، وأكثر من البكاء ، حتى ذهب بصره . وبقى فى داود مريضاً ، حزيناً ، أعمى ، حتى مات فى سنة ١٢٤١هـ — ١٨٢٥م[٢] وأعقب بنتاً ، عاشت مغمورة من بعده ، وولداً ، أو ولدين ، على خلاف بين المؤرخين .

وبعد وفاته احترق منزله بالصنادقية ، واحترقت معه المكتبة العظيمة الحافلة التى تركها له أبوه ؛ والتى زاد عليها هو زيادة كبيرة . ويذكر بعض المؤرخين أن جزءاً من تاريخ الجبرتى ، احترق ايضاً . وكان يتضمن حوادث ما بعد سنة ١٢٣٦ ودفن الجبرتى مع أبيه ، ببستان العلماء .

صفاته وأخلاقه :

كان الجبرتى ، كما رأينا ، ورث عن أبيه وعن أسرته مالا ومجداً ، وهو مع ذلك متواضع . يذكر فيما سجله من مناقشات أعضاء الديوان أيام نابليون ، أشياء يقول إن « بعض الأعضاء » رد بها على الوكيل فوربيه ، ولكنه لا ينسب ذلك لنفسه

---

(١) مادة « الجبرتى » ص ٢٧٩ من العدد الثامن ، المجلد السادس من الترجمة العربية وفى مقدمة الترجمة الفرنسية لعجائب الآثار أيضاً أن الذى قتل هو الجبرتى نفسه .

(٢) اختلف المؤرخون فى تحديد تاريخ وفاته . وأكثرهم على أنها كانت يوم ٢٨ رمضان سنة ١٢٣٧ ولكن المرحوم جورجى زيدان أثبت — فى الجزء الرابع من تاريخ آداب اللغة العربية — أنه عاش إلى نصف ربيع الأول من سنة ١٢٤٠ كما حقق الأستاذ خليلى شيبوب من طريق آخر — فى كتابه « عبد الرحمن الجبرتى » — أنه مات فى هذا التاريخ الذى ذكرته . وذكر تلميذاه ، الشنانى والخضراوى ، فى نزهة الفكر ، أنه عاش إلى سنة ١٨٢٦

ويكتب عن وطنه بروح الاعتزاز والفخر ، وعن أسرته ، ولكنه يخشى أن ينساق إلى التفاخر فيستدرك قائلا ، إنه يذكر ذلك « بقصد التعريف بالنسبة » وعند ما ذكر أعضاء الديوان عمّى فى اسمه فقال « وكاتبه » . ولعله فعل ذلك عامداً ليحتاط لنفسه من غضب المصريين أو العثمانيين بعد عودتهم للقاهرة ، وهو إلى ذلك رجل خيّر ، رقيق العاطفة ، نبيل الخلق . ضاقت الحياة بصهره ، على درويش ، وتعطلت أسبابه ، فنقله وأسرته إلى بيته ، وعاش معه حتى مات ، وتولى دفنه ، وأثنى عليه ثناء كبيراً ، وقال إنه أفاد منه فى التراجم التى ضمنها كتابه .

وكان عبد الرحمن رجلا سمحاً يقدر الجمال ، متأنقاً فى حياته ، كان أصدقاءه الخلص كالشيخ حسن العطار والشيخ إسماعيل الخشاب يدعونه إلى مجالس الغناء . حيث يقول ثانيهما :

يا سيدى وسنـــدى ويا عريق المجتـــد
يا راحتى ، وراحتى وساعدى ، وعضدى
أدعوك تأتى مسرعاً ويا لذاك من يد
نؤم قصراً جامعـــاً كل المعانى الشرّد
نصغى إلى مزهر تمن أضحى فريد البـــلد

وكان هو يدعوها أيضاً إلى منزله حيث يقطعان الليل فى الحديث والسمر والمنادمة ، فيجولان فى كل فن من الفنون ، « تارة يتشاكيان تغير الزمان ، وتكدر الإخوان ، وأخرى يترنمان بمحاسن الغزلان ، وما وقع لهما من صد وهجران ، ووصل وإحسان » ويلاحظ هنا أن الجبرتى يقول : « تارة يتشاكيان » ، « ويترنمان » ولا يقول : تتشاكى ، وتترنم ، وكان هذان الصديقان كثيراً ما يبيتان عنده .

وعرف الخشاب فتى فرنسياً جميل الطلعة اسمه ريج ، روى الجبرتى شيئاً من غزله فيه .

ويذكر الجبرتى أنه لقى فى طنطا شيخاً اسمه أحمد السماليجى الشافعى ، كانت له امرأة بارعة الجمال ، وله منها ولد اسمه أحمد « كأنما أفرغ فى قالب الجمال ، وأودع

بعينيه السحر الحلال » ثم يذكره بإعجاب فيقول إنه « حضر إلى ، وسلم على ، وآنسنى بحسن ألفاظه ، وجذبنى بسحر ألحاظه » . ويقول الجبرتى فى ترجمة بعض أصدقائه إنه « كان يحب الجمال » ثم يتبع ذلك — وكأنه خشى التهمة — بأنه كان لا يترك الصلاة ، أينما كان .

ومما يدل على رقة العاطفة أن الجبرتى يمدح صديقه هذا بأنه كان يمر فى الطريق يفرق الطعام على الفقراء ، والأطفال و « الكلاب » .

وكانت فيه صفات العالم ، كان يسهر الليل يراعى مطالع النجوم . ولما قامت ثورة القاهرة على الفرنسيين ، أتلف العامة فيما أتلفوا أجهزة علمية وفلكية ، فأبدى شديد أسفه على ذلك ، ونددد بجهل العامة وسفههم ، وحزن على فقد هذه الأدوات التى لا تقدر بقيمة « عند من يعرف صنعتها » . وعرض عليه رجل جزائرى أن يشترى كتاب زيج الراصد السمرقندى ، فأبى أن يبيعه بأى ثمن . ولما علم أن الفرنسيين لديهم كتب ذات قيمة ، زار الدار التى خصصوها لذلك ، وأبدى إعجابه بها ، وذكر النظام الذى وضعوه للمطالعة فيها ، وبعض الكتب التى رآها . وأثنى على نشاطهم العلمى ورغبتهم فى البحث والمعرفة وإخلاصهم .

وكانت فيه شجاعة العالم أيضاً ، فكبار المماليك أصدقاؤه وأصدقاء أبيه ، وكذلك كثير من الولاة والسادة الحاكمين ، وكبار الشيوخ إما أساتذته أو أصدقاؤه ، ومع ذلك لم يعف أحداً منهم من النقد والمؤاخذة ، إذا وجد فى صفاته أو سلوكه ما يوجب النقد . وقد ذكر فى مقدمة كتابه أنه لم « يقصد بجمعه خدمة ذى جاه كبير ، أو طاعة وزير أو أمير ، ولم يداهن فيه دولة بنفاق ، أو مدح أو ذم مباين للأخلاق ، لميل نفسانى ، أو غرض جسمانى » . وقد لازمته هذه الشجاعة فعلا فى جميع ما دون من حوادث التاريخ الذى سمعها أو شاهدها . كما التزم أيضاً أدق شروط الأمانة العلمية ، شأن العلماء ، فهو يدون وثائق الحملة الفرنسية ، والشروط التى وضعت بين رجالها ورجال الدولة العلية للانسحاب من مصر ، ثم يقول إنه نقل ذلك بحروفه « وما فيه من خطأ أو تحريف فهو طبق الأصل المطبوع بالمطبعة الفرنساوية باللغة العربية » .

وكذلك حديثه عن جماعة من علماء الآثار الإنجليز زاروا الهرم الأكبر وأبا الهول ، وآثار الفراعنة فى الصعيد . ويسّر لهم محمد على أن يأخذوا من آثار مصر أشياء ذات قيمة شروها بثمن بخس ، وأخرجوها من مصر .

وسيجىء هذا وذاك فى موضعه من الكتاب .

وللجبرتى ملاحظات تدل على سلامة الفطرة . من ذلك إعجابه بنابليون لأنه سافر من القاهرة إلى السويس « فلم يكن معه طباخ ، ولا فراش ، ولا فرش ، ولاخيمة » وكان كل ما أخذه معه « ثلاثة طيور دجاج محمرة ، ملفوفة فى ورقة » .

وهى ملاحظة تدل على حبه للبساطة ، وهو غنى مقتدر ، وبعده عن المظاهر ومعرفته لأقدار الرجال من تصرفاتهم العادية التى قد يمر بها غيره فلا يستنبط منها شيئاً ، ولا تدله على فضيلة أو خصيصة أو محمدة .

وكذلك ثناؤه على الفرنسيين ، لأنهم لم يكونوا يتجاوزون الرسوم التى فرضوها على الأقضية ، أو رسوم التسجيل . ولأنهم لم يبادروا بقتل سليمان الحلبى ، عند ما اغتال الجنرال كليبر ، بل حاكموه وسألوه وناقشوه وناقشوا الشهود . وأثنى عليهم لأشياء أخرى كثيرة سنجدها فى مكانها . وهذا كله دليل على رجحان عقله ، وسداد تفكيره ، وبعده عن التعصب الضيق . كذلك أثنى على الإنجليز ، عند ما وصف صديقه الألفى بأنه عند ما سافر إلى بلادهم « تهذبت أخلاقه ، بما اطلع عليه من عمارة بلادهم ، وحسن سياسة حكامهم ، وكثرة أموالهم ورفاهيتهم وصنائعهم ، وعدلهم فى رعيتهم — مع كفرهم — بحيث لا يوجد فيهم فقير ، ولا مستجد ، ولا ذو فاقة ولا محتاج » .

ومن سلامة الفطرة إدراكه الفرق بين العقيدة والعمل . فقد ذكر فى سياق حديثه عن دقة رجال الحملة الفرنسية فى صرف العملة ، ومقارنة ذلك بما كان يحدث فى غير عهدهم هذه الجملة « ... لأن جميع معاملة الكفار سالمة من الغش والنقص ، بخلاف معاملات المسلمين » .

وهو رقيق العاطفة . ذكر أن محمداً علياً زوج بعض أولاده ، فقدمت لأمهم

الهدايا من نساء المماليك والسادة ، وكان بعضهن فى ضيق من العيش، فاستدنّ ليقدمن الهدية ، ولكن السيدة زوج محمد على لم يرق فى عينها بعض الهدايا ، وعابت على صاحباتها ذلك فى المجلس ، وردتها ليقدمن خيراً منها . وقد أفاض الجبرتى فى ذكر ألمه لما أصاب هؤلاء النسوة من الكرب والخجل ، وكسر الخاطر ، وانكساف البال ، بعد ما أصابهن وأصاب أزواجهن من قسوة محمد على وظلمه .

ويبدو مما كتبه الجبرتى فى مواضع كثيرة متفرقة من كتابه ، أنه كان حر الفكر ، سلفى العقيدة . فهو كثير النقد للبدع ، وما يصاحب موالد الأولياء ، ومدعى الولاية من الفسق والفجور ، والمغالاة فى مدحهم والتوسل بهم ، ويقول إن فى ذلك خروجاً على الدين ، واتباعاً للشهوات ، وأن الفرنسيين لم يبيحوا إقامتها ويحرصوا عليها ، إلا لهذا السبب . ويسجل منشوراً أرسله الوهابيون إلى مصر ، بعد دخولهم مكة ، وفيه خلاصة دعوتهم ، ثم يعقب على ذلك بقوله « إن كان كذلك فهذا ما ندين الله به نحن أيضاً ، وهو خلاصة لباب التوحيد » ثم يذكر بعض أمهات الكتب فى مذهب السلف . وفى موضع آخر يقول إن الوهابيين شرطوا على الركب الشامى ألا يجىء إلى الحج بالمحمل والطبول ، فعاد الشاميون ولم يحجوا « ولم يتركوا منا كبيرهم » . فالمحمل وطبوله ، فى نظره ، منكر . وهو يلقى زعماء الوهابيين الذين حلوا بمصر أسرى أو مهاجرين ، ويتعرف إليهم ، ويصادقهم ، ويثنى على كبيرهم عبدالعزيز ، ثناء خاصاً . وتبدو فيما كتبه عن ذلك سلامة العقيدة والإخلاص . وقد يكون لموقفه العنيد من محمد على ، دخل فى هذا الثناء .

وللجبرتى ، فى إحدى صفحات الكتاب نفحة صادقة من الفهم السديد لروح الدين ومن الاشتراكية العاقلة معاً . فهو يذكر ما أخذه الوهابيون من الحجرة النبوية الكريمة عند فرارهم ، من التحف الكريمة ، والجواهر النادرة القيمة الغالية الثمن ، وأن بعض الناس عد ذلك من الكبائر . ثم يقول إن هذه التحف والجواهر « وضعها خساف العقول من الأغنياء ، والملوك والسلاطين الأعاجم وغيرهم ؛ إما حرصاً على الدنيا وكراهة أن يأخذها من يأتى بعدهم ، أو لنوائب الزمان ، فتكون مدخرة ومحفوظة لوقت الاحتياج إليها فيستعان بها على

الجهاد ودفع الأعداء » ثم يقول إن أخذ هذه الذخائر ليس خروجاً على الدين ، بل الخروج عليه هو كنز الأموال بحجرته — أى حجرة النبى — وحرمان الفقراء والمساكين وأهل العلم وأبناء السبيل الذين يموتون جوعاً .

وفى هذه الصفحة ينتقد الجبرتى ، انتقاداً مراً ، بعض الحكام الذين يسرفون فى أموال المسلمين التى ائتمنوا عليها ، وينفقون النفقات الباهظة فى التفاخر والرفاهية ، ثم يتحايلون على تحصيل المال من رعاياهم بزيادة المكوس والمصادرات والاستيلاء على الأموال بغير حق ، حتى افتقر الرعايا .

وهذه النفحة الاشتراكية ، الإنسانية ، هى التى جعلت الجبرتى ، فى موضع آخر ، يثنى على الفرنسيين لأنهم لم يسخروا العمال الذين كانوا يستخدمونهم لتمهيد الطرق فى القاهرة ، وإقامة المنشئات العامة ، بل كانوا يزيدونهم عن أجرهم المعتاد ويريحونهم بعد الظهر ، ويستعينون بالآلات القريبة المأخذ ، السهلة التناول ، التى تريح العامل وتعينه ، وتقلل من مجهوده ، كعربات نقل الأتربة . وكانت السخرة فى أشق الأعمال ، شيئاً مألوفاً فى ذلك الوقت . وكان موت الفلاحين والعمال من الجهد والإرهاق شيئاً مألوفاً أيضاً وسنجد فى موضع من هذا الكتاب أنهم كانوا يدفنون وفيهم رمق الحياة ، لأنهم عجزوا عن مواصلة العمل وسقطوا من الإعياء .

ويبدو الجبرتى ، فى مواضع أخرى متفرقة من كتابه ، رجلا ساذجاً ، مؤمناً بالكرامات والخرافات فهو يذكر رجلا كانت الجن تخدمه وتطيعه فيما يأمر ، ثم يقول إن ذلك «لا يستبعد» . ويترجم لرجل أبله كان يزعم أنه يكشف ما فى ضمائر الناس ، ولا يستبعد ذلك أيضاً . وعند ما أمر محمد على ، ووافقه فى ذلك القاضى التركى ، بإجراء الحجر الصحى ، وإقامة « الكرنتيلة » احتياطاً من الطاعون ، لامهما الجبرتى على ذلك ، وقال إن ذلك « من حبهم للدنيا ! » . ويذكر من كرامات سيدى على البيومى أن الجالس إليه كان « يرى وجهه تارة كالوحش ، وتارة كالعجل ، وتارة كالغزال » . ولا غرابة فى ذلك التناقض الظاهرى . فإن

الجبرتى ألف كتابه على فترات متباعدة من الزمن . وكان فى بعض ما سجل من هذه الروايات ، متأثراً بالبيئة ، والصحبة ، واعتقاد الجماهير .

والجبرتى فى كتابه تعبيرات تدل على لباقة وحسن أدب وتلطف ، من ذلك تعبيره الطريف عن قاض جديد قدم مصر من إسلامبول سنة ١٢١٦ بأنه « كان له مسيس من العلم » .

أما ذوقه الأدبى فنستطيع أن نعرفه من اختياره للشعر ، وثنائه على ما يختار . فهو يختار مثلا لشاعر معاصر ، هو ابن الصلاحى[1] هذه الأبيات ، ويثنى عليها : —

جزى الله أنفاس النسيم فإنها
لتعـــلم سرا فى النفوس لطيفا
أسرت إلى الأغصان ، عند قدومنا ،
حديثاً ، فمدت للسلام كفوفا
وهزت ، سروراً بالتـــدانى ، معاطفا
وأهدت لنا منها شـذا وقطوفا

وهو يختار لهذا الشاعر نفسه قصيدة جيدة طويلة ، أولها : —

بثّا على النائى الغريب جملا من الخبر العجيب
واستوقف الركبان ما بين الأراكة والكثيب
واستنشد القلب الذى قد ضاع من بين القلوب
ســـلبته ، يوم الدوحتيـ ـن ، طليعة الرشأ الربيب

والأبيات والقصيدة كلتاهما شعر جيد . إذا قارناهما بشعر ذلك العصر خاصة . وليس كل ما اختاره الجبرتى ، وخاصة من النثر ، جيداً ، يدل على تذوق للشعر والنثر ، بل فيه شىء غير قليل من التافه والثقيل ، الذى كان ذوق العصر يسيغه ويألفه ويقبل عليه .

---

(١) توفى سنة ١١٨٠ فى سن الأربعين ، وترجم له الجبرتى وأورد طائفة كبيرة من شعره فى الصفحات ٢٧٠ — ٢٨٦ من الجزء الأول .

ومع إحاطة الجبرتى بكثير من علوم عصره ، واشتغاله بغير ما كانوا يشتغلون به، من علوم الحكمة والرياضة ، وسعة مداركه . فإنه يسمى البحر الأبيض المتوسط « البحر المحيط » .

واشتغل الجبرتى ، مثل أبيه ، بالأمور العامة ، فأفاد الناس من علمه . فالموازين التى حررها أبوه ، عند ما فشا فسادها ، وألف فيها كتابا . اشتغل ابنه بإصلاحها مرة أخرى وتحريرها . ومعرفته بعلم الفلك ، جعلته يستخرج الطالع وحساب النجوم .

وقد ذكر فى بدء حديثه عن سنة ١٢٢١ — وهى السنة الأولى من حكم محمد على — حسابا للنجوم ، وانتقالات الشمس ، وأبراجها ، ومقارناتها ، وحساب الأهلة . ثم قال « وفى ذلك دليل على ثبات دولة القائم ، وتعب الرعية » وقد ثبتت فعلا دولة محمد على ، وصدق حساب الجبرتى وطالعه فى كليهما .

ونستطيع ، بعد ذلك ، أن نعرف شيئاً عن صفات الجبرتى وأخلاقه ، من معرفتنا لخاصة أصدقائه ، وهم الشيخ إسماعيل الخشاب ، والشيخ حسن العطار ، والشيخ أحمد الطحطاوى . أما الأولان فقد ذكرنا طرفا من أخبارهم ، وظرفهم ، ومجالسهم فى بيت الجبرتى ، تلك المجالس التى تمثل فيها بقول الشاعر :

فىَّ انقباض ، وحشمة ، فإذا رأيت أهل الوفاء والكرم
أرسلت نفسى على سجيتها وقلت ما قلت ، غير محتشم

وقد توفى الخشاب فى سنة ١٢٣٠ ، أى قبل وفات الجبرتى بأكثر من عشر سنين ، وعاش العطار بعده ، ولكنه لم يشاركه فى خصومة محمد على ، بل صادقه ، وتقرب إليه ، وألف من أجله كتابا فى الرسائل أهداه إليه[1] . وتولى مشيخة الأزهر ، وكان شاعراً ، رحالة ، خبيراً بالحياة . وسنترجم له فى موضعه .

أما ثالثهم : الطحطاوى ، فقد كان تركى الأصل ، شجاعا فى الحق ، عند ما تألب الأشياخ على السيد عمر مكرم ، وكتبوا فيه ما كتبوا ، امتنع عن مسايرتهم والشهادة

---

(١) رسائل العطار المطبوع فى المطبعة العثمانية بالقاهرة سنة ١٣٠٤ هـ (ص ٣) .

معهم ، وانفرد بذلك دونهم . فغضبوا منه ، وأكثروا من ذمه والكيد له حتى فصل من مشيخة الحنفية ولكنه لم يتراجع ، وأعاده محمد على مرة أخرى لمشيختها . وقد قبلها فى المرة الأولى على كره . وكان الطحطاوى هذا من أحب صحبة الجبرتى له وأقربهم لقلبه .

عجائب الآثار

يقول الجبرتى فى مقدمة كتابه : — « إنى قد سودت أوراقا فى حوادث آخر القرن الثانى عشر وما يليه ، وأوائل الثالث عشر الذى نحن فيه ، جمعت فيها بعض الوقائع إجمالية ، وأخرى محققة تفصيلية ، وغالبها محن أدركناها ، وأمور شاهدناها ، وأستطردت فى ضمن ذلك سوابق سمعتها ، ومن أفواه الشيخة تلقيتها ، وبعض تراجم الأعيان المشهورين ، من العلماء والأمراء المعتبرين ، وذكر لمع من أخبارهم وأحوالهم ، وبعض تواريخ مواليدهم ووفياتهم ، فأحببت جمع شملها وتقييد شواردها فى أوراق منسقة النظام ، مرتبة على السنين والأعوام » .

ويقول فى موضع آخر إنه كان يدون الحوادث فى « طيارات » ثم يعود إليها بالتفصيل والشرح والإفاضة . فهو يسجل فى مذكراته ، الحوادث اليومية . ثم يتوسع فيها . وقد سجل حوادث السنين الأولى رواية عن أبيه وعن شيوخه وأصدقائه الذين شهدوها ، أو سمعوها ، ورجع فى ذلك أيضاً إلى سجلات الدولة من دفاتر الكتبة وغيرها ، وما نقش على حجارة القبور ، وذلك من أول القرن إلى سبعين سنة منه . ثم يقول إن « ما بعد السبعين إلى التسعين أمور شاهدناها ثم نسيناها وتذكرناها ، ومنها إلى وقتنا أمور تعقلناها وقيدناها وسطرناها » .

وظاهر هذا الكلام أنه شاهد بنفسه ، وسجل ما شاهد ، ابتداء مما بعد السبعين من حوادث القرن الثانى عشر ، وذلك ما اعتقده وأقره أكثر مؤرخيه . مع أن سنه إذ ذاك كانت أربع سنين . وأعتقد من الاضطراب الظاهر فى العبارة أنه لا يقصد ذلك ، وربما أراد ما بعد التسعين ، لا السبعين .

وقد ذكر أن الذى دعاه لوضع هذا التاريخ هـو السيد مرتضى الزبيدى ، صاحب تاج العروس ، حيث طلب مفتى دمشق ، السيد محمد خليل الراوى ، من الزبيدى وضع هذا التاريخ . فـكلف به الجبرتى ، وكان يكتب ما يكتب ويقدمه للزبيدى. فلما مات هذا بالطاعون فى سنة ١٢٠٥ استولت زوجه على جميع ماخلفه ، بما فى ذلك كتبه ، وفيها ما قدمه له الجبرتى من تاريخه ، ثم تزوجت أرملته واستطاع الجبرتى أن يشترى منها ما خلفه السيد فوجد ضمنه أوراقه . وأرسل له مفتى دمشق بعد ذلك يستحثه على أن يتم كتابه ، فكان ذلك مشجعاً جديداً له .

أما الطريقـة التى اتبعها فى تدوين الـكتاب ، فإنها مع استيعابها ووفائها ، أبعدت بينه وبين أن يكون تاريخاً منسقاً متتابعاً ، بل جعلته أشبه شىء بجريدة يومية أو أسبوعية ، تسجل الحوادث الواقعة ، بلا ترابط ولا توحيد أو تأليف ، فترى الرجل ، أو الحادث ، يذكر فى مواضع متفرقة متباعدة من الـكتاب حسبما تجىء به ، أو بها ، المناسبة ، لأمر وقع ، أو حادث جرى . وذلك نتيجة طبيعية لسرد الجزئيات على الأيام . وهو يخلط بين الجليل والحقير من الحوادث خلطا ، قد يكون عجيباً ، ولـكنه إحدى نتائج الأمانة والحرص على الاستيعاب .

فهو ، مثلا ، فى حوادث شهر جمادى الثانية من سنة ١٢٢٢ يذكر حادثة شيخ من بنها يدعو الناس لمقاومة سلطة القاهرة ، ويفصل ما جرى له حتى قتل ، ثم يذكر خبر واقعة بين محمد على وشيخ دسوق ، ثم يجمع إلى ذلك حادثة رجل من الدلاتية[1] كان يرمى دجاجة بحجر لتقع من سطح دار إلى أخرى ، ليستحوذ عليها . . . !

أما ترتيب الـكتاب فقد أشار فى مقدمته إلى صفات الحاكم العـادل . وذكر الحديث الذى رواه أبو هريرة « عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة ، قيام ليلها وصيام نهارها » وقال إن سبب هلاك الحاكم هو « إطراح ذوى الفضائل ، واصطناع ذوى الرذائل ، والاستخفاف بعظة الناصح ، والاغترار بتزكية المادح » . ثم ذكر تاريخاً مختصراً للملوك والدول التى حكمت مصر ، بعد ضعف الخلافة العباسية ، حتى

---

(١) إحدى طوائف الجند من أكراد الشام .

الفتح العثمانى . ولخص فى صفحتين حوادث السنين الخمس الأولى من القرن الثانى عشر . ثم أفرد حوادث كل سنة بعد ذلك ، مرتبة بترتيب وقوعها ، على الشهور والأيام . وفى الكتاب إشارة إلى أنه كان يكتبه فى سنة ١٢٢١[1] .

وقد جعل الجبرتى من كتابه ، عجائب الآثار ، سجلا حافلا ، جامعاً ، دقيقاً ، لحوادث السنين التى أرخ لها . لم يترك أمراً جليلا أو صغيراً رآه أو سمع به ، إلا ذكره . يترجم للمماليك ، أمراء مصر ، ولشيوخ الأزهر ، والولاة والأشراف ، والعلماء ، والتجار ، وخفيرباب زويلة ، والخطاطين ، والصناجق ، والأولياء ، وخادم النعال بالمشهد الحسينى ، والشعراء ، والمجذوب الصاحى ، وكان حمالا فى دمياط ، ومدعى النبوة ، والمجانين . ويذكر أسعار الغلال واللحم والسمن واللبن والذهب والتمر والبن والحطب والفحم ووقوع الطواعين والأوبئة ، وعمارات المساجد والبيوت والقنوات والترع والسدود . ويسجل ، فى حوادث سنة ١١٩٠ ، دخول فيل صغير القاهرة ، من الهند ، ويفصل حادث الشيخ صادومة . ولا يترك صغيرة ولا كبيرة . وقال فى كل ذلك « إنى لم أخترع شيئاً من تلقاء نفسى ، والله المطلع على أمرى وحدسى » و : « لا أكتب حادثة حتى أتحقق صحتها بالتواتر والاشتهار » .

وتبدو فى الجزئين الأولين العناية بتراجم الرجال وسير المماليك والعلماء وغيرهم وفى الجزئين الآخرين تبدو العناية أكثر بتسجيل الأحداث والوقائع .

وقد ذكر أنه سيعيد مراجعة كتابه . والظاهر أنه لم يتيسر له أن يفعل . لذلك جاء فيه ذكر بعض الحوادث مكرراً ، وجاء فيه ما يدل على عدم التحرى فهو يقول ، مثلا ، فى ترجمة الشيخ سليمان البجيرمى أنه ولد فى سنة ١١٣١ ، ثم يقول إنه تجاوز المائة ، وهو فى الوقت نفسه ، يحدد تاريخ وفاته بليلة الاثنين ١٣ رمضان من سنة ١٢٢١ فهو بذلك لم يتجاوز المائة ، وإنما عمر إلى التسعين . وفى الكتاب أشياء غير قليلة من ذلك . ولو أنه راجع ما كتب ، ومحصه ، لما وقع فى ذلك ومثله . وليس

---

(١) ص ٣٧٩ من الجزء الثالث .

ذلك تنقيصاً لقيمة الكتاب ، فقد أجمع المؤرخون على أنه مصدر من أوثق وأوفى وأهم المصادر التاريخية عن تلك الفترة . وخاصة فيما سجله عن حوادث عصره التى شاهدها بنفسه .

ومن أجود ما كتبه الجبرتى ، وأكثره أهمية ، ما سجل فيه حوادث الطبقة الأخيرة من المماليك ، وفترة احتلال الفرنسيين لمصر ، وطبيعى أن يكون ذلك ، فكبار المماليك أصدقاء والده ، وكبار الشيوخ الذين كانوا أعضاء فى ديوان نابليون وكذلك كاتم سر الديوان إسماعيل الخشاب ، أصدقاء له ، وهو نفسه كان من أعيان العلماء إذ ذاك ، وكان عضواً فى الديوان الثالث .

ولكن أجود ما كتبه الجبرتى ، وأعظمه قيمة ، تلك الصفحات التى صور فيها حياة المجتمع المصرى أصدق صورة وأبرعها وأقواها . وتراجم العلماء والأمراء وكبار الرجال فى عصره ، وفى هذا وذاك لا نجد للجبرتى نظيراً ولا ضريباً بين المؤرخين فى جميع العصور .

أما الفترة التى سجلها من عهد محمد على ، فتتسم بالاختصار ، وعدم الاستيعاب لأنه لم يكن من رجال محمد على ، ولا من المتصلين به أو برجاله . وهو نفسه يعتذر عن تقصيره فى تسجيل حوادث القسم الأخير من كتابه « إذ لا يمكن استيفاؤها ، للتباعد عن مباشرة الأمور » وهو فى تسجيل عهد محمد على يترك بعض الشهور دون أن يذكر حادثاً ما ، وبعضها يدون فيه سطوراً قليلة ، أو حادثاً فرداً . ويحتاط فى الرواية بأن يقول : — على ما بلغنا ، أو على ما قيل ، وأشباه ذلك .

أسلوب الكتاب

أما أسلوب الجبرتى فى كتابه فليس على نسق واحد ، وهذا طبيعى ، ولكنه فى عمومه يكاد أن يكون مصريا عاميا ، كثير الأغلاط . والتعبيرات المصرية الشعبية التى لا يزال كثير منها متداولا إلى الآن ، يجدها القارىء فى كثير منه . فهو يصف حريقاً فى « خطتنا بالصنادقية » فيقول : إن النار « رعت ووجّت » ، ويقول : « إن

النيل « انهبط » ، يعنى انخفض ماؤه ، وأن سعر القمح « شطح » ، أى ارتفع ، و « وثارت كرشة » أى زحام وتدافع ، و « وتحنجل فى مشيه » ، ويذكر كلمة « قشل » و « قشلان » بمعنى مفلس . « وكثر العياط » و « زاد تنطيطهم » و « زرع له فوق السطوح » ، إذا مناه الأمانى الكاذبة ، و « رقرق » لذلك فلان أى مال إليه وتأثر به ، و « النفخة » بمعنى الغرور. ونجد من التعابير المصرية مانزال نسمعه إلى اليوم مثل « كل الوقايع زلابية » ومثل « قارب شيحة » ، فقد ذكر أنه نزل — فى سنة ١١٧١ — مطر كثير ، سالت منه السيول ، وأعقبه الطاعون المسمى « بقارب شيحه الذى يأخذ المليح والمليحة » . ونجده يذكر « الكبّة » وهو يريد الطاعون كما يفعل العامة إلى الآن . وأمثال ذلك . وهو لا يلتزم السجع ، ولكنه أحياناً يتفصّح به فى غير موضعه فيبدو ظريفاً مضحكا ، كذلك السجع الذى التزمه فى وصف قوم فجأهم المطر وهم يسيرون مكرهين فى زفة عروس « فاختل نظامهم ، وابتلت ثيابهم ، وتكدرت طباعهم ، وانتقضت أوضاعهم ، وزادت وساوسهم ، وتلفت ملابسهم ، وهطل الغيث على الأبريسم والحرير والشالات الكرخانة والسليمى والكشمير ، وكثير من الناس من وقع بعد ما تزحلق ، وصار ثوبه من الوحل أبلق ، ومنهم من ترك الزفة ، وولى هارباً فى عطفة ، يمسح يديه فى الحيط ، مما تلطخ بها من الرطريط » .

وهى صورة ، كما ترى ، مع طرافتها ، صادقة ، حية .

وقد اعتذر هو عن ضعف أسلوبه ، وتقصيره ، وأخطائه بقوله : — « هذا مع اعترافى بقصور الباع ، وفتور الطباع ، فى قوانين المعانى العربية ، ودواوين المثانى الأدبية » . وغير بعيد أن يتعمد الجبرتى شيئاً من الالتواء والغموض ، مراعاة لبعض الاعتبارات والظروف .

وهذا لا يمنع أن يجد القارىء صفحات جيدة الأسلوب بين ثنايا الكتاب .

التاريخ بلا عاطفة

والجبرتى يكتب تاريخه ، ويسجل فيه أحداث مصر العظيمة التى شهدها ،

أو سمعها ، ولـكنه لا يظهر أية عاطفة فيما يكتب ، فهو يلم الشوارد ، ويدون ويقيد ، ولـكنه لا يلوّن بشعور ، ولا يضفى بأحساس .

يسجل ، بأمانة وإفاضة ، حوادث الحملة الفرنسية ، ومقاومة المصريين لجنود نابليون فى صفحات طويلة ، ولـكن القارىء لا يستبين فيها أى لون من ألوان العاطفة فهو لا يكتب تاريخ هذه الفترة العصيبة الحافلة من تاريخ مصر بروح الوطنى المصرى وإحساسه ، ولا بروح الرجل المسلم ، حيث كانت العاطفة الغالبة المسيطرة . بل هو فى مواضع كثيرة لا يخفى اللوم والضجر من عنف القاهريين وشططهم فى مقاومة الفرنسيين ، ويجعل ذلك من سخف العقل . وهو كذلك ، فى ترجمة الألفى ، يطنب فى مدحه ، ويشيد بفضائله ، ويذكر أنه سافر إلى بلاد الإنجليز مع خمسة عشر من رجاله ، وبقى ضيفا عليهم زمنا ، يطلب حمايتهم ويمكّن لهم من احتلال مصر ، وغاب فى هذه الرحلة سنة وشهراً وبعض أيام ، وعاد من بلادهم يحمل الهدايا الـكثيرة ، الغالية ، ثم يقول إن الألفى أيضاً أرسل إلى الإنجليز يستنجدهم أن يعينوه على حرب محمد على وإخراجه من مصر . ومع هذا وذاك لا يجد الجبرتى ، فيما أقدم عليه الألفى أى مبرر للومه ، ولا يشعر القارىء أنه أحس أى عاطفة من العواطف فيما أقدم عليه

ويستطيع القارىء ، وهو يعجب ، أن يجد شيئاً غير قليل من شذوذ العاطفة فى تدوين الجبرتى لحوادث سنة ١٢٢٢ ودخول الانجليز الاسكندرية فيها[1] فهو يكاد يتمنى لو أنهم استطاعوا أن يملـكوا القطر كله ، ليساعدوا صديقهم وحليفهم، الألفى ، ضد محمد على وهو يذكر أميراً من المماليك اسمه عثمان بك حسن ، سعى إليه الإنجليز ليعينهم على بسط سلطانهم على مصر ليمـكنوا له وإخوانه ، فى زعمهم ، من حكمها دون محمد على ، ولـكن عثمان بك هذا أجاب الإنجليز بأنه هاجر وجاهد الفرنسيين ، وأنه لا يقبل أن يختم حياته بمساعدة الإفرنج على إخوانه المسلمين .

ولعل القارىء يعتقد أن الجبرتى أعجب بإخلاص عثمان بك لدينه ، أو لوطنه ،

---

(١) فى ليلة ٢١ مارس من سنة ١٨٠٧ م

وشكر موقفه هذا ، أو على الأقل، سجل الحوادث بلا عاطفة ، كما هو غالب شأنه. ولكن العجيب أن الجبرتى يصف عثمان بك فى موقفه المشرف هذا بأنه « يدعى الورع» ثم يقول بعد ذلك بقليل أنه «كان ما أراده المولى جل جلاله ، من تعسة الإنجليز ، والقطر وأهله » .

فهو بذلك يشى بسريرته ، ويظهر حزنه المكظوم لحبوط الحملة الانجليزية على مصر .

ولا نستطيع ، على وجه القطع واليقين ، أن نتهم الجبرتى ، لهذا أو لغيره ، فى عاطفته الوطنية أو الدينية وهى العاطفة الغالبة . التى كان يحسها الناس إذ ذاك ويعرفونها .

ولكنا نلاحظ ، إلى جانب حديثه عن عثمان بك حسن ، أن الجنرال منو اختاره عضواً فى الديوان الأخير الذى ألفه . وكان منو أشد القادةالفرنسيين قسوة ، وأبعدهم فى العنف والجبروت على أهل مصر . ونلاحظ أيضاً أن الفرنسيين قبضوا على أربعة من أعضاء هذا الديوان ، عندما قدمت الحملة الإنجليزية التركية ، ولم يقبضوا على الباقين من هؤلاء الأعضاء ، بل تركوهم ليحكموا بهم أهلى مصر. وكان الجبرتى من هؤلاء الذين تركوهم ، وخصصوا لكل واحد منهم خادماً يقوم على خدمته ، كما نلاحظ أيضاً أن الجبرتى ، وهو يتحدث عن الثورات التى قام بها أهل القاهرة ضد الفرنسيين ، كان كأنه يلوم زعماءها على عنادهم وصلابتهم، ويتهم بعضهم بأنه من الأغرار الأفاقين . أما سواد الناس من القائمين بالثورة ، فكان يسميهم أحياناً « بالزعر » وأحياناً « بالخرافيش » . ويصفهم بأنهم « حشرات الحسينية ، وزعر الحارات البرانية » أى الذين يسكنون خارج أسوار القاهرة وأبوابها .

وقد يكون لطبيعته من الاعتدال ، والبعد عن العنف ، مدخل فى شعوره هذا وفى حديثه عن الثورة والثائرين . كما كان لها أثر فى رأيه وسلوكه مع الفرنسيين . وقد يكون حبه للعلم ، وتقديره لما شاهد عند علماء الحملة الفرنسية من الكتب والآلات الهندسية والفلكية ، وما رآه المصريون ، لأول مرة ، من مظاهر الحضارة

العلمية ، قد يكون ذلك مما أوجد فى نفسه آصرة من التقدير والقربى — ولا أقول المحبة — بينه وبين الفرنسيين .

وقد ذكر الجبرتى أنه كان يكتب تاريخه فى سنة ١٢٢٠ ، ذكر ذلك مرة فى تدوينه لحوادث سنة ١١٨٦ ومرة أخرى فى حوادث سنة ١١٩٠ . وهولم يكتبه كله فى ذلك الوقت طبعاً ، بل كتبه على فترات طويلة متباعدة .

تداول الكتاب وطبعه وترجمته

كان تاريخ الجبرتى، أو جزء منه على الأقل ، متداولا ، أو معروفا لبعض الخاصة ، فإنه يذكر فى ترجمة الشيخ عبد الله الشرقاوى أنه ألف كتاباً فى تراجم فقهاء الشافعية ، فنقل تراجم المتأخرين منهم « من تاريخنا هذا بالحرف الواحد » .

وقد بقى الكتاب محجوباً ، أو ممنوعاً ، حتى أذن الخديوى توفيق بطبعه ، فطبع لأول مرة ، فى سنة ١٢٩٧ هـ ، بالمطبعة الأميرية ، وطبع الجزءان الثالث والرابع ، وفيه بعض من تاريخ محمد على ، أولا ، ثم الأول والثانى .

وقد ذكر الجبرتى، فى ختام كتابه أنه سيفصل بعض المسائل فيما «سيتلى عليك إن شاء الله تعالى بكماله فى الجزء الآتى بعد ذلك » ولعل هذه الإشارة هى التى جعلت بعض المؤرخين يعتقد أنه كتب جزءاً خامساً ، أُحرق أو أُعدم ، لاشتماله على أشياء ضد محمد على وحكمه [1] . ولكن الأرجح أن الجبرتى لم يكتب بعد ذلك

---

(١) ذكر جورجى زيدان فى تاريخ آداب اللغة العربية ـ الجزء الرابع ـ أنه « يقال إن عجائب الآثار ، بعد طبعه ، صادرته حكومة الخديوى وحذفت منه ما كتبه ضد محمد على » . ولكنى لم أجد مايؤيد هذه الرواية ، أو يساعد عليها .

وسنجد فى الفصل الذى عقدناه عن محمد على، أن الجبرتي كتب عنه بحرية واسعة ، وتناول شخصه ، وأخلاقه، وتصرفاته بأشياء كثيرة . وأن هذا الذى كتبه موجود فى الطبعات المتداولة لذلك ، ولأسباب أخرى ، أستبعد هذا الذى رواه جورجى زيدان بصيغة التضعيف .

وتقول دائرة المعارف الإسلامية أيضاً أن نسخة سابقة على طبعة المطبعة الأميرية سنة ١٢٩٧ هـ » ، صودرت وأعدمت.

شيئاً . ووجدت بعض النسخ بخطه وفيها « أن هذا هو آخر الجزء الرابع » . وبعده توفى الشيخ . ولم يكتب شيئاً ، كما نرى بعد قليل .

وتكرر طبع الكتاب بعد ذلك ، منفرداً ، وعلى هامش التاريخ الكامل ، لابن الأثير . ونشر القسم الذى كتبه الجبرتى عن الحملة الفرنسية مستقلا بعنوان « تاريخ الفرنسيين فى مصر » نشرته جريدة « مصر » بالإسكندرية فى سنة ١٨٧٨ . وقام بنشره الأديب اللبنانى أديب اسحق .

وترجم هذا القسم إلى اللغة الفرنسية ، ترجمه مترجم القنصلية الفرنسية بمصر . المسيوكار دان وطبع فى سنة وفاته ١٨٣٨م أى بعد موت الجبرتى بثلاث عشرة سنة . وقد رأينا من قبل أن هذا الجزء نفسه ترجم إلى اللغة التركية ، بأمر السلطان سليم الثالث ، وجعل عنوانه « إنقاذ مصر من الفرنساوية » .

ومما لا شك فيه أن محمداً علياً عرف ما سجله الجبرتى عن سيئاته ، ومساوئ حكمه ، وأنه جزع لذلك واستاء منه أكبر استياء ، وقد أراد أن يرد على الجبرتى ، من طريق غير مباشر ، فطلب إلى شيخ الأزهر ، الشيخ محمد العروسى[1] ، أن يكلف أحد العلماء بتأليف كتاب عن تاريخه يعارض فيه الجبرتى . فكلف الشيخ خليل بن أحمد الرجبى الشافعى الذى وضع كتاباً ملأه بمدح محمد على والإشادة بذكره . وتوجد من هذا الكتاب نسخة خطية فى دار الكتب المصرى تحت رقم ٥٨٥ تاريخ .

وترجم « عجائب الآثار » إلى اللغة الفرنسية ، ونشر فى تسعة أجزاء ، تضمنتها ثلاثة مجلدات ، وطبع بالمطبعة الأميرية بين سنتى ١٨٨٨ و ١٨٩٦ م وفهم بعض المؤرخين أن هذا التراخى كان سببه ما كتبه الجبرتى عن محمد على . وقام بهذه الترجمة أربعة ، هم شفيق بك منصور يكن ، وعبد العزيز كحيل بك ، وجبرائيل نقولا كحيل بك ، واسكندر عمون أفندى .

---

(١) تولى المشيخة سنة ١٢٣٣ بعد الشيخ الشنوانى .

وذكر هؤلاء فى مقدمتهم لهذه الترجمة الفرنسية، أن نوبار باشا هو الذى أوحى إليهم بفكرتها ، وأن يعقوب أرتين باشا كان معينا لهم فى القيام بالمشروع .

وللجبرتى كتب أخرى ، هى ، « مختصر تذكرة داود الأنطاكى[1] » فى الطب، وكتاب عن ألف ليلة وليلة، يرجح أنه فقد ، وذكر بعض المؤرخين أنه ، عندما قتل ابنه خليل ، كان يشتغل بوضع كتاب عن الثورة اليونانية ، ولم يتمه .

وقد ذكر بروكلمان أن الجبرتى ترجم كتاب « سلك الدرر ، فى أعيان القرن الثانى عشر » للسيد محمد خليل المرادى . وأعتقد أن هذا خطأ ، منشؤه أن مصحح المطبعة الأميرية التى طبع فيها سلك الدرر[2] قال فى ختام الجزء الثانى أنه قد تم بحمد الله تعالى طبع كتاب سلك الدرر لمحمد خليل المرادى ، « الذى ترجمه الجبرتى » . والواقع أنه قصد أن الجبرتى ترجم للسيد خليل المرادى ، لا أنه ترجم كتابه . وقد سبقنى إلى تحقيق ذلك الأستاذ خليل شيبوب[3] .

وسنجد فى مواضع أخرى من هذا الكتاب ، ما يزيدنا معرفة بالجبرتى وأبيه. ويجعلنا أكثر إحاطة بما كان عندهما من فضائل وأخلاق وصفات . وما كان لهما من مكانة ومنزلة وأثر .

مخطوطات التاريخ ومظهر التقديس :

يوجد فى دار الكتب المصرية من عجائب الآثار ثلاث عشرة نسخة مخطوطة منها أربع كاملة ، وباقيها أجزاء وكراسات ناقصة .

وأحدث هذه المخطوطات الكاملة كتب فى سنة ١٢٨٩ بخط أحمد بن محمد بن أحمد بن موسى الشاهد. وفى الصفحة الأخيرة من الجزء الرابع أنه نقل من خط المؤلف . وأنه لم يكتب بعد ذلك شيئاً . وينتهى بنهاية سنة ١٢٣٦ كما تنتهى النسخ المطبوعة .

---

(١) توجد منه نسخة خطية فى دار الكتب المصرية ، تحت رقم ٤٤٠٤ طب .

(٢) طبع سلك الدرر فى مطبعة بولاق الأميرية سنة ١٢٩١ هـ .

(٣) هامش ص ٦٠ من كتابه « عبد الرحمن الجبرتى » .

وتلى هذه النسخة فى القدم نسخة أخرى ، كتب الجزءان الأولان منها بخط محمد أحمد الشافعى ، والثالث بخط أحمد يونس ، أبو التيسير فى سنة ١٢٨٧ ، والجزء الرابع كتب فى نهايته أنه تم فى ربيع الثانى سنة ١٢٨٩ ولم يذكر اسم الكاتب .

ثم تلى هذه نسخة أخرى كتبت فى سنة ١٢٧٢ بخط الحاج محمد حسين أحمد مصباح الشافعى الأزهرى . وفى آخر الجزء الرابع منها فهرس بأسماء المتوفين من الأعلام . ولكنه لا ينتهى بنهاية ما سجله الجبرتى فى تاريخه (سنة ١٢٣٦) بل يمتد بهذه الأسماء وتواريخ وفاة أصحابها إلى سنة ١٢٧٢ ، تاريخ كتابة المخطوط ، ويبدو أن الذى أكمل هذه التواريخ هو الشيخ مصباح ناسخ المخطوط .

وأقدم هذه النسخ المخطوطة تمت كتابتها فى سنة ١٢٦٢[1] — أى بعد وفاة الجبرتى بإحدى وعشرين سنة . ولم يذكر اسم كاتبها . وكان هذا المخطوط ملكا للمرحوم محمود باشا سامى البارودى . مكتوب فى الصفحة الأولى لكل جزء منه ما يلى : — « من كتب الفقير إليه تعالى محمود سامى الشهير بالبارودى » وتاريخ سنة ١٢٨٥ ثم ختم باسم « محمود سامى » .

والسطور الأخيرة من هذا المخطوط تتفق تمام الاتفاق مع النسخ المطبوعة . ثم تنتهى بهذه الكلمات : — « تم لسنة ست وثلاثين . ونقل هذا من نسخة بخط الجبرتى فى ٢٥ ذى الحجة سنة ١٢٦٢ » .

وهناك جزء ثان فقط ، لم يذكر اسم كاتبه ، وفى نهايته أنه تمت كتابته فى ٢٥ ربيع الأول سنة ١٢٦٢ أيضاً . وعلى صفحته الأولى أن المرحوم على فهمى نجل رفاعة بك رافع الطهطاوى طالعه كله سنة ١٢٧٨ .

وقد راجعت صفحات هذه المخطوطات الأربعة الكاملة ، وهذا الجزء الثانى الأخير ، وقابلت كثيراً من صفحاتها مع صفحات المطبعة الأميرية ، فلم أجد سوى قليل جداً من الخلافات اللفظية ، أو من تقديم أو تأخير لبعض كلمات مما لا يزيد معنى أو ينقصه أو يبدله . وعنيت ، بصفة خاصة ، بالجزء الأخير من كلّ من

---

(١) مخطوط رقم ٢٢٨٧ تاريخ .

المخطوطات الكاملة ، والصفحات الأخيرة منها بصفة أخص ، لعلى أجد ما يفيد وجود زيادة ليست فى النسخ المطبوعة ، فلم أجد .

وفى المكتبة الأزهرية من عجائب الآثار ، مخطوطان: الأول بخط خليل إبراهيم المجوز ، انتهى من نسخه سنة ١٢٨٩ . وهو فى ثلاثة مجلدات . والثانى بخط محمد بن أحمد بن موسى الشاهد الحنفى الأزهرى ، ولم يذكر تاريخ الانتهاء من نسخه . وهو فى أربعة مجلدات . وكلا المخطوطين منقول عن نسخة بخط الجبرتى . وكلاهما أيضا ينتهى بنهاية واحدة هذا نصها : — « وهذا آخر الجزء الثالث ، أو الرابع ، وبعده توفى الشيخ . ولم يكتب شيئاً » وهو ما ختمت به طبعة المطبعة الأميرية ، وطبعة المطبعة الشرقية التى اعتمدت عليها .

وتنتهى الحوادث التى أرخها الجبرتى فى هذين المخطوطين بنهاية سنة ١٢٣٦ كما فى النسخ المطبوعة . وكما هو الحال فى جميع النسخ الخطية التى ذكرتها .

وقد راجعت ، وقابلت هذين المخطوطين ، كما فعلت بالمخطوطات الخمسة فى دار الكتب ، فكانت النتيجة هنا مثلها هناك .

وهذا كله يؤيد ما ذهبت إليه من عدم وجود قسم ، أو جزء ، لم ينشر ، أو نشر ثم صودر ، كما روى جورجى زيدان ، بصيغة التضعيف .

وفى دار الكتب المصرية فهرس مخطوط لعجائب الآثار من عمل المرحوم أحمد تيمور باشا . يشمل الحوادث ، وأسماء الأعلام ، والنقود . وفهرس آخر من عمل المرحوم توفيق اسكاروس يشمل أسماء العلماء المذكورين فى الكتاب ، مرتبة على الحروف .

وفى المكتبة التيمورية مخطوط لعجائب الآثار كتب فى سنة ١٢٨١ . ويوجد مخطوط آخر من هذا الكتاب فى مكتبة السيد الكتانى بفاس ، لم أستطع أن أعرف عنه شيئاً . ولعل بعض الباحثين ، ممن يعنون بمثل هذا ، يعرّفنا به .

أما مظهر التقديس . ففى دار الكتب المصرية منه مخطوطان — وهو لم يطبع ،

كما أسلفنا . المخطوط الأول منهما كتب فى سنة ١٢٢٤[1] قبل وفاة الجبرتى بسبع عشرة سنة ، وبعد أن أتم تأليفه بسبع سنين وخمسة أشهر . حيث ذكر أنه أتم تأليفه فى شعبان سنة ١٢١٦ .

وفى الصفحة الأولى من هذا المخطوط أسماء خليل رفعت باشا ، وخسرو باشا ، وكان أحد ولاة مصر فى فترة من هذا التاريخ [من ١٣ جمادى الأولى سنة ١٢١٦ إلى ١٤ المحرم سنة ١٢١٨] والمخطوط فى ١٤٥ ورقة ، أى ٢٩٠ صفحة كبيرة .

والمخطوط الثانى من مظهر التقديس كتب فى سنة ١٢٩٣ .

وقد طالعت ، بإمعان ، المخطوط الأول ، الأقدم ، من مظهر التقديس ، وقابلته بما كتب الجبرتى فى تاريخه عن دخول الفرنسيين مصر ، وإقامتهم فيها ، وخروجهم منها ، وتاريخه للسنوات الثلاث التى أقاموها بها ، فخرجت من هذه المقابلة بالملاحظات التى ألخصها فيما يلى : —

يذكر الجبرتى اسم الشيخ حسن العطار على أنه شريك فى تأليف الكتاب ، فهو يقول فى أوله ، إنه ألف كتابه وضم إليه ما كتبه الشيخ حسن العطار من النثر والشعر . ثم يقول عند اختياره اسم الكتاب « وسميناه » مظهر التقديس وهو عند ما ذكر ذلك عن تاريخه قال «سميته» عجائب الآثار . وعند ما يورد بعض الشعر يقول أنه « لصاحبنا الآتى ذكره » . أو لصاحبنا السابق ذكره ، بعد أن ذكر اسم الشيخ العطار .

ونحن نعرف أن الجبرتى لم يقل الشعر .

بدأ الكتاب ، بعد حمد الله ، بمدح الدولة العثمانية الخاقانية . ثم ربط بين الظواهر السماوية ، كخسوف الشمس وحركات النجوم ، وبين الحوادث الأرضية ، وذكر بعد ذلك قدوم الفرنسيين مصر ودخولهم فيها . مع أن مصر لم يغلبها غالب ، حتى التتار الذين هزموا جند الأرض كله ، كثيراً ما قهرهم جند مصر القاهرة . حتى لم تقم لهم بعد ذلك قائمة .

---

(١) مخطوط رقم ١٠١ م تاريخ

ثم يلوم المماليك على تهاونهم فى تحسين الثغور ، والعناية بعدة الحرب ورجالها .

ويورد شعرا ، أعتقد أنه للشيخ العطار ، هو : —

إنما هذه البـــلاد لأقوا ... مٍ حموها بالصـــارم المساول
وأرى دولة المماليـــك ما ... لت لضروب الملذات ، بالتحصيل
واغتنوا عن تجريد سيف ورمح ... بقوام لدن ، وطرف كحيـــل

ويلومهم كذلك على سلوكهم مع أهل مصر ، ومصادرة أموالهم ، والقسوة عليهم . ثم يذكر السلطان سليما الثالث وتداركه مصر بتخليصها من الفرنسيين . ويذكر صدره الأعظم يوسف باشا بأوصاف لا تكاد تنتهى من المدح والتفخيم والإشادة والتعظيم .

وتجىء بعد ذلك مقدمة موجزة فى التاريخ ، منذ بدء الخليقة ، ونزول أبى الأنبياء آدم ، وتوارد الرسل لهداية الناس . والرسالة المحمدية الخالدة . وملخص فى غاية الإيجاز للخلفاء الراشدين ، والدول الإسلامية المختلفة التى أعقبتهم ، وفتوحاتها ، وما جرى بعد ذلك من وقائع حتى دخل العثمانيون مصر .

ثم يبدأ بسرد حوادث الحملة الفرنسية من اليوم العاشر من المحرم سنة ١٢١٣ ومن هنا يبدأ فى الاتفاق مع ما كتبه فى عجائب الآثار ، ما عدا خلافات يسيرة ، وتكرار لبعض الفقرات والجمل .

وبعد أن أورد الكتاب منشور نابليون الذى وجهه إلى المصريين بعد دخوله الإسكندرية ، أخذ يناقش هذا المنشور ويعلق عليه ، ويفسره . وهذه أشياء لا توجد فى عجائب الآثار .

وفى هذه المناقشة ، وهذا التفسير يحمل مظهر التقديس حملات قاسية على نابليون ، والفرنسيين .

ولا تقتصر خصومة الجبرتى للفرنسيين فى مظهر التقديس ، وعنفه عليهم على هذه المناقشة ، بل نجد الروح التى تسيطر عليه هنا ؛ مختلفة عن تلك التى كتب بها فى عجائب الآثار . ونجد الطابع الذى يتميز به مظهر التقديس ، من هذه الناحية ،

مغايراً إلى حد بعيد، لذلك الطابع الذى نجده فى العجائب . فهو، فى مظهر التقديس ، ينعتهم بأوصاف الجهل، والنفاق، والخداع ، والظلم ، والخروج على جميع الأديان . ويتمنى زوال دولتهم ، ويظهر التشفى والسرور عند ذكر هزيمتهم أمام مراد بك ، فى بعض المواقع ، ويسميهم الملاعين .

ثم هو لا يذكر فى مظهر التقديس ، ما ذكره فى عجائب الآثار ، من أنهم كانوا يأجرون العمال على ما يقومون به من إصلاح أو إنشاء فى طرقات القاهرة ومرافقها ، وأنهم كانوا يعطونهم أكثر من الأجر المعتاد .

وكذلك يطوى زيارته مقر علماء الحملة الفرنسية ، واطلاعه على ما كان فيه من الكتب والصور والرسوم . ومشاهدته عندهم التجارب الطبيعية والكيمائية . وإباحتهم لأهل مصر أن يزوروا مقر هؤلاء العلماء ، وأن يفيدوا منه . وهى قطعة كبيرة نجدها فى عجائب الآثار ونفتقدها فى مظهر التقديس .

ويسقط أيضاً ، من مظهر التقديس ، فى ختام شهر شوال من سنة ١٢١٣ قطعة ضمنها ، فى العجائب ، بعض الأعمال والإنشاءات التى قام بها الفرنسيون فى القاهرة .

وحذف منه كذلك قطعة من رسالة نابليون ، التى وجهها إلى أهل مصر يعلل فيها عدم استيلائه على عكا . وأثبت قطعة كبيرة من قصيدة السيد على الصيرفى ، نزيل عكا فى ذلك الوقت ، لم تذكر فى العجائب .

وقد تضمنت هذه القطعة من القصيدة مطاعن كثيرة فى الفرنسيين ، وفى نابليون .

ونجد فى مظهر التقديس تعليقاً على هذه القصيدة ، ونقداً لها ، لعله من وضع الشيخ العطار ، تحدث فيه عن العروض ، والترصيع ، والوتد ، والزحاف . إلى غير ذلك من مصطلحات هذا الفن . ونجد ، بعد ذلك ، استدراكا على الشاعر لأنه مدح أحمد باشا الجزار ، حاكم عكا ، على بلائه فى صد نابليون عنها ، ولم يمدح الوزير يوسف باشا على جهاده .

ثم يدافع عن العثمانيين عند ما يذكر نابليون فى منشوره له ، أن دولتهم فى مصر قد دالت . ويقسو عليه فى ذلك أشد القسوة .

وتحارب العثمانيون والفرنسيون فى الإسكندرية ، فهزم الأولون ، وأسر قائدهم مصطفى باشا ، وكبير منهم هو عثمان خوجا . فيذكر ذلك فى العجائب ، ولكنه ، فى مظهر التقديس ، يزيد عليه عزاءه للعثمانيين ، وتهوين الأمر عليهم .

ثم يسقط من مظهر التقديس ، ما يدل على ضعف العثمانيين ، أو فساد تدبيرهم ، بعد عقد الصلح مع الفرنسيين .

ومن الملاحظات الخاصة بالصياغة ، ولكنها ذات دلالة ، أنه عند ما يذكر نابليون ، فى عجائب الآثار ، يصفه بأنه « سارى عسكر » الفرنسيين ، أى قائدهم العام . وعند ما يذكره فى مظهر التقديس ، يقول « كبير الفرنسيس » وكذلك يقول فى عجائب الآثار ، عن معسكر العثمانيين « عرضى الوزير » وفى مظهر التقديس « عرضى همايون » أى المعسكر السلطانى .

وفى نص واحد نجده يذكر نابليون فى عجائب الآثار باسم « بونابرته » وفى مظهر التقديس بقوله « اللعين » .

ومن لطائف هذه الفروق ، بين عجائب الآثار ، ومظهر التقديس ، أنه يذكر خروج الجيش العثمانى إلى الصالحية ، بعد فشل الصلح ، وابتداء الحرب بينهم وبين الفرنسيين ، يذكر ذلك فى العجائب ، فيقول إن سببه ضعف هذا الجيش واشتغال جنده بجمع المال من البلاد ، وظلم الناس ومصادرتهم .

ويذكر ذلك ، فى مظهر التقديس ، فيقول إن سببه الحرص على شروط الصلح وأنه كان حكمة حربية وبراعة ، وعملا بقول من قال : الحرب خدعة ! .

ومن الزيادات التى تلفت النظر ، ما ذكر فى مظهر التقديس[1] من أن نابليون عند ما دخل عليه الشيخ السادات باستدعاء منه ، « صار — أى نابليون — يقبل يده تارة ، وركبته أخرى » .

---

(١) ورقة ٢٣ .

وقد أسقط الجبرتى من مظهر التقديس ، ما سجله فى العجائب ، من عدوان الجند العثمانى على أهل القاهرة ، بعد عودتهم إليها . مع أنه يقول فى العجائب وهو يصف عدوانهم على الناس ، وهم فى ثورتهم على الفرنسيين ، إن أهل البلاد « تمنوا زوالهم ورجوع الفرنسيين على حالتهم التى كانوا عليها » .

كما يسقط رسالة عنيفة وجهها الشيخ السادات إلى كتخدا الدولة ، يزجره فيها على عدوان جنده . ونجدها فيما كتبناه عن الأزهر والعلماء من كتابنا هذا[1].

كذلك نجد فى العجائب كثيراً من الآيات القرآنية الكريمة التى تخوف من عاقبة الظلم ، ثم لا نجدها فى مظهر التقديس . كأنما خشى أن يفهم ذكرها على أنه تعريض بالعثمانيين . وكذلك لم يذكر الضرائب والمغارم التى فرضها الفرنسيون على علماء القاهرة وأعيانها ، جزاء اشتراكهم أو تحريضهم على الثورة . ومناقشة كليبر لهم فى ذلك .

وعند ذكره لمقتل الجنرال كليبر ، أسقط السجل الذى أثبته فى العجائب عن مناقشة قاتله ، سليمانا الحلبى ، ومحاكمته ، وأقوال الشهود ، والأحكام التى صدرت بإعدامه ، وإعدام شركائه الثلاثة ، وأمر القائد العام الجديد ، الجنرال منو ، بتنفيذ هذه الأحكام . ووصف هذا التنفيذ .

ومن الملاحظات الجديرة بالعناية ، أنه عند ما ذكر إنشاء الديوان الثالث ، الذى الذى أمر منو بتشكيله من العلماء وحدهم . أسقط أسماء أعضائه التسعة . وقد ذكرهم فى العجائب ، وأشار إلى نفسه فيهم بقوله «وكاتبه» .

وكذلك أسقط من مظهر التقديس ، الوصف الذى أثبته فى العجائب لجلسة هذا الديوان الأولى .

وكان ديجنت ، كبير الأطباء الفرنسيين ، ألف رسالة فى علاج الجدرى ، لعله أهداها إلى الجبرتى . فوصفها فى العجائب بأنها « لا بأس بها فى بابها » . ولكنه فى مظهر التقديس يسقط وصفه لها . وهو لا يذكر أيضا تخفيف الفرنسيين لبعض

---

(١) فى الجزء الثانى من الكتاب .

الأتاوات التى كان الوالى والمحتسب يفرضانها على أهل القاهرة . ولا يذكر خبر قدوم الإنجليز إلى أبى قير ، وحربهم الفرنسيين .

ونجد عند ذكره أنباء عودة العثمانيين للقاهرة شيئاً غير قليل من الاختلاف والتغيير . وإسقاطا لحوادث اعتدى فيها جندهم على بعض البائعين من أهل القاهرة. غصبوهم بضاعتهم ؛ فلما طولبوا بثمنها ، قتلوهم وقتلوا غيرهم ، حتى رجال الأمن والشرطة .

ثم نجد ، بعد وصفه موكب الصدر الأعظم حين دخل القاهرة ، قطعة ، أعتقد أنها من إنشاء الشيخ العطار ، فيها ذكر لكبار العثمانيين الذين قدموا معه ، وفيها قصيدة للشيخ أيضا أولها :

إنما العز فى متون الجيـــاد مع بيض الظبا ، وسمر الصعاد

وهى ثلاثة وثلاثون بيتا . وفى هذه القطعة من النثر ، نجد كل اسم من أسماء هؤلاء القادمين ، مسبوقا بطوفان من ألقاب التعظيم والمدح والتفخيم .

وعندما استقر الأمر للعثمانيين ، فرضوا على تجار القاهرة مغارم ، ذكرها فى العجائب ، وطواها فى مظهر التقديس . كما طوى أخباراً أخرى عن بعض المماليك، وعزل القاضى التركى ، وقتل بنت السيد خليل البكرى[1]،ومشاجرات وقعت من الجند العثمانى على أهل القاهرة . كما أسقط اشتغال هؤلاء الجند بالبيع والشراء ، وتستر قادتهم عليهم . بل دفاعهم عنهم . لأنهم أنقذوا مصر من الفرنسيين ... !

وفى الشهور الثلاثة الأخيرة من الكتاب ، نجد كثيراً من الأخبار قد حذفت ، ونجد بدلا منها أنباء قدوم السادة من كبار العثمانيين ، مثل محمد أفندى شريف ، دفتردار الدولة ، ويذكر فى قدومه شعرا ، وقدوم كتخداه — نائبه — عثمان أفندى ، وشمس الدين بك ، أمير أخور[2] ، ومرجان أغا ، والقاضى مصطفى أفندى دباغ زاده . ولا يذكر ، بعد ذلك ، فى حوادث شهر ربيع الثانى سنة ١٢١٦ ، سوى عودة المحمل . ويسقط القرارات والأوامر التى أصدرتها الدولة بشأن الأموال والضرائب

(١) نجد قصتها فى آخر الحياة الاجتماعية من هذا الكتاب .

(٢) أمير المذاود ، الموكل بعلف الدواب

ونجد بعض حوادث هذه الشهور الثلاثة فى غير موضعها، ويذكر فى هذه الشهور بعض اعتداءات الجند العثمانى . وكف الصدر الأعظم لهم عندما علم ذلك .

ثم يسجل كتاباً ، نجده فى العجائب ، موجهاً من السلطان إلى عرب البحيرة ، بأن يكفوا عن قطع الطريق ، والعدوان على الناس . وجواباً كتبه الشيخ إسماعيل الخشاب ، على لسان هؤلاء العرب ، بأنهم سيلزمون الطاعة . وهو موجه إلى « الصدر الأعظم يوسف باشا ، بلغه الله ، من المرادات ما شا » . وتاريخ هذا الجواب اليوم الثانى والعشرين من شعبان سنة ١٢١٦ ، وبه تنتهى حوادث مظهر التقديس .

ونجد فى مظهر التقديس شيئاً قليلا من التغيير ، والاختلاف ، عن عجائب الآثار ، ولكنه تغيير واختلاف قليل القدر والأهمية . كما نجد بعض الزيادات القليلة أيضا ، غير ما سجلنا من قبل ، كزيادته مدح قائد الجيش التركى ، مصطفى باشا ، الذى أسره الفرنسيون ، لمناسبة إخراجه من الأسر ، ثم سفره بعد ذلك إلى دمياط وموته فيها . وزيادته تقبيح الفرنسيين وسبهم فى بعض المناسبات ، ووصفه بعض كبارهم بأنه « كلب » . وزيادته قطعة من النثر والشعر للشيخ حسن العطار ، وصف فيها بركة الفيل ، وذكر ما أصابها من التخريب على يد الفرنسيين ، عند الثورة عليهم .

ومع أنه أسقط من سنتى ١٢١٣ و ١٢١٤ التراجم التى سجلها فى ختام كل سنة من العجائب ، لمن ماتوا فيها ؛ فقد ذكر ، فى حوادث الشهور ، بعض الوفيات ، كوفاة ولدى الشيخ أحمد الجوهرى ، محمد ، وعبد الفتاح . والأمير مراد بك ، والشيخ عبد القادر المغربى . وفى ختام سنة ١٢١٥ يترجم لمن ماتوا فيها . ولكنه يسقط تراجم العلماء ، ويسجل تراجم المماليك والأمراء .

ونجد كذلك قصيدة للشيخ حسن العطار فى مدح الشيخ عبد القادر المغربى .

وما عدا هذه الفروق ، نجد مظهر التقديس متفقاً مع عجائب الآثار ، فى الحوادث ، والصياغة ، والترتيب .

وفى نهاية مظهر التقديس خاتمة تتلخص فى أنه من الأوفق أن يجعل ختامه شهر رمضان ، تيمنا به ، وإشارة إلى أن وجود الصدر الأعظم ، الذى ألف رسمه الكتاب ، فى الأيام ، كوجود شهر الصيام فى الأعوام ، يزيل الفساد ، ويكثر العبادة ، وتنجبر به القلوب ، وتخلص النيات فى كل مرغوب . ولأن فيه ليلة القدر ، والصدر الأعظم شبيه بها فى أن الأمة المحمدية تترقب ظهوره من مدد متطاولة . ولأن قدومه مصر كقدوم العيد فى نهاية شهر رمضان .

وبعد ذلك شعر فى مدحه ، لا بأس به ، وفى تهنئته بشهر الصوم لا بأس به أيضاً . ويجيء ، بعد الدعاء الكثير ، ببيتا التاريخ :

سعد تاريخنا بإقبال صدر بمعالى ثنائه مسطور

فلهذا يقول بشرى ، أرّخ باجتناء السرور جاء الوزير

وقد تم تأليفه فى نهاية شهر شعبان من سنة ١٢١٦ .

وكان الفراغ من تحرير هذه النسخة فى غرة المحرم من سنة ١٢٢٤ .

ونستطيع بعد ذلك أن نسجل أن الفروق التى نجدها فى مظهر التقديس ، عن العجائب ، مردها إلى المناسبة التى ألف فيها الكتاب .

فهو عند ما دوّن ما كتب عن الفرنسيين فى عجائب الآثار ، كانوا ما يزالون يقيمون فى مصر ، وهم أصحاب الحول فيها والسلطان . فهو ، فى هذه الحالة ، يتخذ سبيل السلامة ، ويأخذ بالمداراة والتقيّة ، فلا يتعرض لهم بذم أو ملامة .

وهو ، فى الوقت نفسه ، يترجم عما فى نفسه من تقدير لهم ، وعطف عليهم ، نلمسه فى غير موضع من العجائب . وندركه من صلاته بهم ، ولو أنه حرص على سترها شيئاً ما .

وهو عند ما كتب ، مع صديقه العطار ، مظهر التقديس ، كان الفرنسيون قد تركوا مصر ، ولم يبق لهم فيها حول ولا سلطان ، بل عاد السلطان فيها لخصومهم

العثمانيين . ومظهر التقديس يؤلف لصدر من صدور الدولة . عند ذلك كتب الجبرتى والعطار ما كتبا فى مذمة الفرنسيين ونابليون ، ووصفاهم بما وصفا .

وما أسقطه من الكتاب أمور لاتهم الصدر الأعظم ولاتهم الدولة [1] .

---

(١) فى المكتبة الأهلية فى رامبور بالهند ، مخطوط لمظهر التقديس تحت رقم ٣٦٣٤ تاريخ نسخه سنة ١٢١٦ ولم يذكر اسم ناسخه . وهو فى ١٧٥ صفحة . وقد أخذت له الإدارة الثقافية بالجامعة العربية صورة فتوغرافية محفوظة فى معهد إحياء المخطوطات بها تحت رقم ٣٠٣٣ / ٩٨ — ٢٧٥ ويقول الأستاذ رشاد عبد المطلب خبير المخطوطات بالجامعة العربية إن هذا المخطوط « قد يكون نسخة المؤلف » .

وتوجد من عجائب الآثار مخطوطات كثيرة فى مكاتب المانيا وفرنسا وانجلترا وروسيا والهند واستامبول .